
الأدب الشعبي
مدونة ابو عبدو
حديث الشيخوخة
عبد الحميد بعلبكي
نوفل

حديث الشيخوخة

عبد الحميد بعلبكي



نوفل

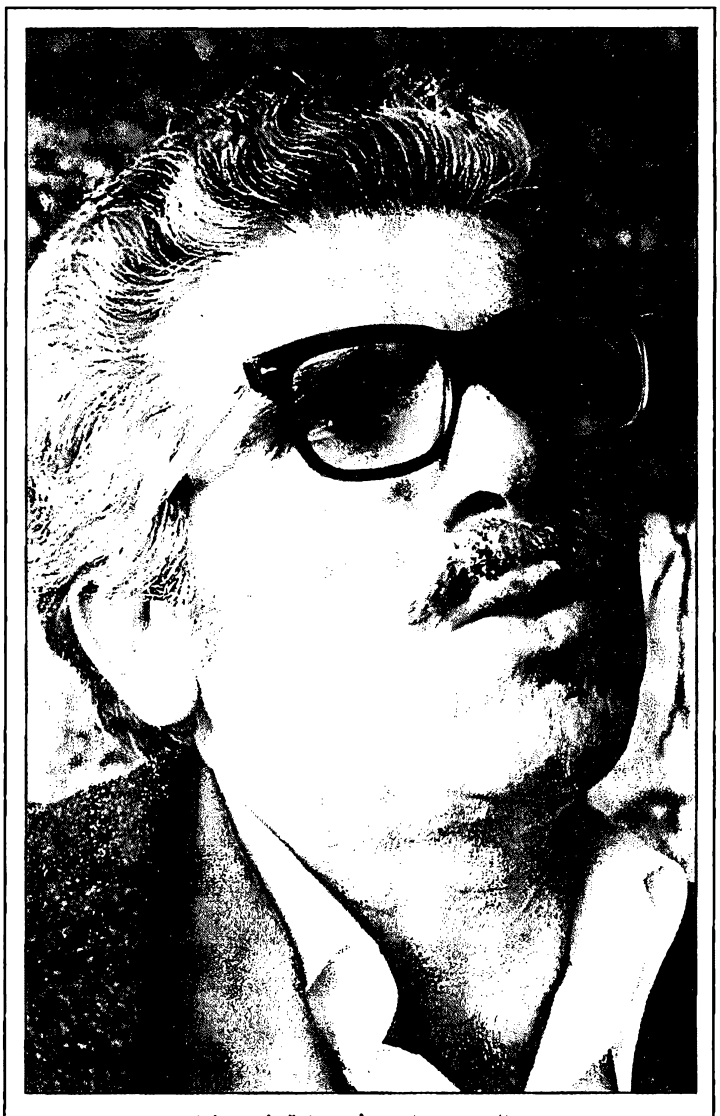
صدرت عام 2017 عن نوفل، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورِست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لوحة الغلاف:
عبد الحميد بعلبكي، «حديث الشيخوخة»
زيت على قماش، 80 x 100 سم
(تصوير Agop Kanledjian)

تصميم الغلاف: معجون
متابعة النشر: رنا حايك
تصميم الداخل: ماري تريز مرعب
طباعة: المطبعة العربية

ر.د.م.ك.: 978-614-438-823-5



عبد الحميد بعلبكي في بداية خمسينياته

المقدّمة

«حديث الشيخوخة»
كسرٌ لطوقِ البداهات

الرهان على المعنى رهانٌ على الماء في سرابِ الصحراء؛ كلَّما أمعنَ المرءُ في السعي وراءه ليستدلَّ على منابعه، يُدرك أكثر طبيعتَه المراوغة...

قد تبدو المعاني الماثلة أمامنا كأنّها طرائدُ العقلِ ومقاصدُه؛ لكنَّها قد لا تكون سوى ستارٍ لمَعانٍ أخرى يُغلِّفها المعنى الظاهرُ ويسترها، مثلُها مثلُ جبل الجليد، ما يبدو منه للعيان أقلُّ بكثير ممّا هو مخفيٌّ منه. وهذا ما يُعزِّز الاعتقادَ بأنَّ اللُّغة تتجاوز حدودها اللفظيّةَ؛ بمعنى أنَّ هنالك عواملَ خلفها تتكلّم من دون أن تكون لغة، كالدوافع الغريزيّة مثلًا، التي تتلطّى خلف الكلمات. وهذا ما يُفضي بنا إلى الظنِّ بأنَّ اللغة قد تنطوي أحيانًا على خيانةٍ ما في مكانٍ ما، لأنّها قد تصوِّر عالمًا من الأشياء يُخفي خلفه عالمًا آخر من المعاني...

بهذه المثابة يكون الكلامُ على الكلام الذي تقمَّص كتاب «حديث الشيخوخة» كلامًا مُفارقًا لما كُتب؛ ويأتي هذا الافتراق من طبيعة المقاربة التأويليّة للنصوص؛ ذلك أنَّ تقصّي اللغة الصامتة الماثلة

خلف الكلام النصّي يهدفُ إلى ضبط المعنى المراوغ، وتظهير حقائقه المخفيّة. لكن من أين يتلقّى الباحث إشارة الولوج إلى هذا التقصّي؟ وأين ترتسم خطوط التحويل؟ أمِن القراءة، أم من خارج أُطُر النصوص؟

ما يبدو عصيًّا، في الواقع، ليس المطالعةَ المباشَرة، لأنَّ هذه تُقدِّم دلالاتها مع نهاية خطِّها الزمنيّ المحدود، بل هو عدم امتثال «كوداتها» للائتلاف.

قد لا تكون النصوص التي بين أيدينا خارج نَسقِ الدوافع الذاتيّة للفرد؛ فلُغتها، وإن بدَت تندُّرًا واستهزاءً، تخفي في الحقيقة ما تخزّن من سديمٍ نفسيٍّ مؤلم ينتاب الشخصَ اللاإمتثاليّ خاصّةً، لدى رؤيته أو تذكُّره حالاتٍ من هذا النوع الذي تحمله هذه النُّصوص. وهو حين يلجأ إلى مثل هذا الأسلوب الفكِه إنّما يطمح إلى السيطرة على الموقف من خلال التقاط المفارقات والتشنيع على أشخاصها.

لستُ أدري إن كان اختيار النصوص قد جاء من ضمن توجُّه «استراتيجي»، أم جاء بالصدفة وعفو الخاطر. لكنّ معرفتي بشقيقي، صاحب هذه النصوص، تجعلني أُرجِّح أنّ التوجّه الأوّل هو الأقرب إلى الصواب.

فعبد الحميد فنّان تشكيليّ، وشاعر، وبحكم هذه الطبيعة المزدوجة يطمح لرؤية العالم حوله من خلال ذاته: عالم مرتَّب، وجميل، ومتوائم، كما الفنّ بالضبط. عالم خالٍ من الشوائب، شفّافٌ

ونقيّ كالبلّور. بكر لا تُدنِّسه القذارات المتأتّية من النوازع البشريّة الرخيصة والماكرة.

إنّ نفسًا، والحالة هذه، لتكره البشاعةَ والالتواء بكلّ صنوفهما وأشكالهما؛ فهو منذ طفولته المبكِّرة كان يقوم بتقليد أصحاب العاهات بصورة لافتة، وكثيرًا ما كان الأهلُ يصحبونه في زياراتهم الخاصّة، فيشكِّل حضورُه حفلةً للضحك الصاخب والقهقهة، حينما كان ينخرط في تقليد ذوي الإعاقات من أبناء البلدة وممَّن يفد إليها في المناسبات؛ فكان يُؤدّي دورَه وكأنّه هو صاحب الإعاقة ولا أحد سواه...

ذكر فرويد في كتابه «ما فوق مبدأ اللذّة» حادثةً كانت موضعَ مراقبةٍ منه لبعض ألعاب الأطفال، وهي، باختصار، أنَّ طفلًا كان أحد الأطبّاء قد حقنه في صغره بإبرة دواء، آلمته كثيرًا، لعب ذات يوم دور الطبيب فغرز عودًا صغيرًا في إليةِ أحد أترابه مكرّرًا الحركات والتمتمات ذاتها التي قام بها ذلك الطبيب من قبل.

صحيح أنّ تكرار التجربة يتضمَّن شيئًا من الإيلام، إذ يُعيد إلى الطفل ذكرى غير مستحبّة، وفي هذا مخالفة لنوازع النفس البشريّة الطامحة دائمًا إلى الفرح، لكنّ الأمر لا يتوقَّف على هذا الشقِّ من التجربة، إذ ثمّة شقٌّ آخر يُظهر دافع حبّ الانتقام متمثّلًا بفرح الطفل لانتصاره على ألمه من خلال تكرار التجربة.

لقد تدرَّج عبد الحميد في حياته الداخليّة نفسيًّا من التقليد المثير للضحك إلى الفكاهة، ومنها إلى الظرف، فالسخريّة. وكان كلّما

ٱرتقَت معارفه، وٱتَّسعَت رؤيته، تضيق حلقات هذه الأشكال الداعية إلى الضحك، لتقتصر أخيرًا على السخريّة الإيجابيّة وحدها.

إنَّ جُلَّ كتاباته النثريّة لا ينتمي إلى الأدب الساخر كما هو أدب مارون عبّود أو إبراهيم عبد القادر المازنيّ، لكنّه لا يقلُّ عنهما شأوًا إذا ما وقعَت في شراكه طريدة؛ عندها ينظر إليها وكأنّ في عينيه آلة تصوير ذات حساسيّة عالية. فلا يدع فيها مطعنًا أو مَثلبة إلّا أظهرها في شريط نقديّ يُماثل الفيلم السينمائيّ الهزليّ!

***

يصف الباحثُ الفرنسيّ أندريه كريسون السخريّة بأنّها «مشادّة مع عالم مبتذل»، وتأتي هذه المشادّة نتيجةً للتباين بين قطبين متناقضين: الخضوع مقابل عدم الامتثال. وبما أنّ كلّ بيئة اجتماعيّة تطمح لأن تكون مستقرّة في أوضاعها وهيئاتها، فإنّها تعملُ على تثبيت هذا الاستقرار عن طريق تماسك أبنائها، ولا يتأتّى لها مثل هذا التماسك ما لم تَستَنَّ لذاتها آليّة خاصّة، هي عبارة عن آليّةٍ تتماشى مع ٱستساغاتها الفطريّة، تعتبرها أنظمة وأعرافًا مثلى لحياتها، أطلق عليها روبرت إسكربيت – Escarpit تعبير «بداهات». هذه البداهات من شأنها حمل المجتمع على محاكاتها لاشعوريًّا، لعمق حضورها في عقله ووجدانه؛ كما أنّه يُنشئ منها مذهبًا يُحلِّه محلَّه في الأفراد بواسطة ٱنعكاسات شرطيّة، ويحميه بالعقوبات. وبديهيّ أنّه في مجتمع يشكو من عطالةٍ في أواليّاته

التي تُشغّل «سيستامه» لا بدّ من أن تتوقّف ثقافته عن النموّ، وأن يدور أبناؤه في حلقة من البداهات.

يسأل إسكربيت: ألا ينتبه أحد إلى هذه البداهات؟ ويجيب عن السؤال قائلًا: «إنّ من ينتبه هو الإنسان الظريف الذي يكسر طوق البداهات، لأنّه لاإمتثاليّ بالفطرة، لذا فهو مولود في الشذوذ (الشذوذ هنا بمعنى التفرُّد، والغرابة، والخروج عن المألوف)، أكانت اللاامتثاليّة طبيعيّة أم متعمَّدة، مختلفة أم حقيقيّة، أساسيّة أم مكمّلة، بيِّنة أم مستورة، فإنّها تُترجَم دائمًا بتعليق واحدة أو أكثر من البداهات...»[1]. هذا النمط من التعبير، بحسب البُنى الواعية للفرد اللاإمتثاليّ، يُعدُّ مظهرًا من مظاهر النقد الفكريّ البنّاء. وهو بالقياس إلى مسبِّباته لا إلى وصفه، يحمل طاقةً كبيرة من وعي الذات والعالم الخارجيّ، تمرُّ في وعي الفنّان أو الأديب الساخر من دون أن يكون لديه إدراك بذلك، أو أيّ شعور تجاهها: إنّها من عمل اللاوعي. وهو حين يُباشر مهامّه التعبيريّة ينتهك البداهات المحرّمة، ويمهرها بألمه، وإن لم يُصرّح به؛ وهذا ما يُعيدنا إلى المربّع الأوّل، أي إلى تجربة الطفل الفرويديّة...

أمّا الشقّ الآخر من الكتابة الساخرة فهو أنّها مظهرٌ من مظاهر القوّة، وأنّها تفوّق وانتصار على المحرّمات العنيدة التي تؤذي الوجدان الحيّ واليقظ لأصحاب الطاقات الخلّاقة، والتي تغدو بسببها ضعيفةً وسهلة الانقياد. فحين يعمد الساخر إلى حسر اللثام عن الهفوات بشكلٍ سافرٍ

---

[1] نقلًا عن كتاب: «الفكاهة والسخرية في أدب مارون عبّود»، سيمون بطيش.

فإنّما يُريد أن يجعلها مدار تندُّرٍ وٱستهزاء من الآخرين، من دون رحمة أو شفقة، لأنّه لا وجود لمثل ذلك مع السخريّة، وإذا حصل عكس ذلك تنتفي عنها أهمّ صفةٍ من صفاتها الرئيسيّة، أعني، النيل من المتورِّط بأسلوب كاريكاتوري ساخر؛ لكن شرط أن لا يكون النقد قدحًا مفرطًا وتجريحًا، لأنّ ذلك يُعدّ عقابًا غير بنّاء، فيما النقد الساخر يتوخّى «فرك الأذن» لا أكثر.

***

ختامًا... إن كان لا بدّ من كلمة بخصوص لغة عبد الحميد في كتابه «حديث الشيخوخة»، أقول إنّه برغم ما أعرفه عنه من شغفٍ باللُّغة العربيّة إلى حدّ التقديس، ومن تشدُّد «متغطرس» في صقل نصوصه، شعرًا ونثرًا، كأنّه ينحت الجمل بإزميل – وهو للمناسبة نحّات في الطيّن والحجر – جاء «حديث الشيخوخة» متدفّق اللُّغة بانسياب أخّاذ، متماسك البنيان، عفويًّا، كما لو كان صاحبه يتحدّث في سهرةٍ قرويّة؛ فهو بهذه المثابة أشعريٌّ من حيث يدري أو لا يدري. لقد ترتَّبَت المعاني في نفسه فترتّب الكلام بهذا اليُسر والجريان...

الفنان فوزي بعلبكي

سوق يا ابني... سوق!

كان (خ.ب.) واحدًا من الرجال الإرهمانيّين[1] في البلدة الذين أغنَتهم الحياة بالتجارب والحِنكة، رغم أنّه كان أمّيًّا، وبالكاد يكتب اسمه لضرورات العمل. انتسبَ في شبابه إلى فوج القنّاصة الذي أنشأه الفرنسيّون في عهد انتدابهم على سوريا ولبنان. وفي مطلع الأربعينيّات استعفى من الخدمة، وراح يعمل، كبقيّة أبناء جيله، بتهريب البضائع عبر الحدود بين لبنان وفلسطين.

في فترة السبعينيّات، وكان قد بلغ طور الكهولة، اشترى شاحنةً بالشراكة مع واحد من شباب البلدة هو (م...) وكان هذا قد عمل في الكويت، لسنوات، سائقَ شاحنات «Toute Marque». وقد جرى تشغيل الشاحنة في جلب منتجاتٍ بقاعيّة كالبيض، والبصل، والبطاطا... وتصريفها في قرى الجنوب من الناقورة حتّى حاصبيّا. وكان لشدّة حرصه على ضبط المصلحة، واهتبال فرص التسوّق والتصريف

[1] الإرهمانيّون: صيغة شعبيّة مقلوبة عن القهرماني. والقهرمان لغةً هو الوكيل، أو أمين الدخل والخرج. والعامّة تعني بالإرهمانيّ المجرّب ذا الخبرة والرأي السديد.

بأفضل الأسعار، لا يسمح للشريك بتاتًا بالسفر وحده بذريعة أنّ «الربح بالمسواق، والمسواق الربّيح لا يُحسنه إلّا الرجل الحاذق المجرّب، الذي يعرف كيف يحلب النملة...».

كان (خ...) ذكيًّا، مرنًا، يتمتّع بروح الشباب، ويُحسن الفكاهة والتصرّف بالحديث، ما جعل الشريك (م...)، وهو الشابّ الممراح، يتعشَّق مرافقته له.

في السنوات الأولى من الحرب الأهليّة التي عصفَت بلبنان، كانت العلاقة بين التنظيمات الفلسطينيّة وحلفائها في الحركة الوطنيّة اللبنانيّة من جهة، والسلطات السوريّة من جهة أخرى، تشهد حالة من التردّي والعداء. وبتأثيرٍ من ذلك، منع السوريّون عن المناطق التي تُسيطر عليها تلك القوى، خصوصًا الجنوبيّة منها، الموادّ التموينيّة كالطحين، والغاز، وما شابه... في تلك الفترة اكتشف (خ...)، وهو خبير في أعمال التهريب، أنّ الفرصة مواتية لجني أرباح طائلة من تهريب مثل تلك الموادّ، ولا سيّما الطحين، الذي كانت أسعاره قد ارتفعَت في المنطقة ارتفاعًا جنونيًّا باعتباره مادّةً لا يمكن الاستغناء عنها في أيّ بيت.

– يا الله يا بو الهمايم يا (م...)، إجت الزومة اللي بيستنظرها الرجال!

هكذا خاطب (ج...) شريكه وهو يطرح عليه فكرة أن يبدأ بتهريب الطحين. ولمعرفة (م...) بمواهب صاحبه، وقدراته في هذا المضمار، أجابه على الفور:

– لعيونك... قول الله من حدّ بكرة...

سارَت الأمور في العمل، برغم مخاطره، دون مشاكل في السفرتَين الأولى والثانية، أمّا في الثالثة فقد وقع المحظور.

قبل أن تصل الشاحنة إلى مشارف صغبين، حيث كانت للقوّات السوريّة مراكز انتشار وحواجز على الطرقات، فوجئ الشريكان بواحد من هذه الحواجز على مسافة مئتَي متر تقريبًا. كانت الحمولة عبارة عن مئة كيس طحين، مُوِّهت برصّة أكياس بصل وبطاطا، وإن أُخضِعَت للتفتيش فلا بدّ من أن ينكشف أمرها بسهولة... وتقع الخسارة الباهظة. نظر (م...) وهو يبطئ سير الشاحنة في وجه شريكه مرتبكًا وهمس بقلق:

– علقنا...

ردّ (خ...) بهدوء:

– ما تِهكَل همّ... سوق لقول لك...

قال ذلك، وارتمى من فوره متهالك الأطراف فوق المقعد، وقد تبعثَرَت كوفيّته وعقاله فوق هامته، ثمّ بدأ بالصراخ والتأوّه كمَن أُصيب إصابة قاتلة.

نظر (م...) في وجهه مدهوشًا من قدرته على تمثيل الدور. وأشدُّ ما أثار دهشته كيف أنّ وجهه قد اربدَّ وتفصَّد عرقًا كمَن أجهدَه الألم.

عند بلوغ الحاجز ارتفعَت وتيرة الصراخ والتأوُّهات الموجّهة. فوجئ الجندي وهو يُطلُّ من باب الشاحنة بالمشهد فسأل (م...) باهتمام:

– شو ماله العم... شو ماله؟!

اشترك (م...) في تمثيل الدور فادّعى أنّه، قبل دقائق، فوجئ به يرتمي هكذا، وهو يشكو من ألم شديد في صدره. ثمّ أخذ يتظاهر بالبكاء...

ظنّ الجنديّ، وكان رقيق القلب على ما يبدو، أنّ الرجل مصاب بذبحةٍ صدريّة فصاح بالسائق:

– روح... روح. عجِّل. شوف له أقرب حكيم!!

انطلق (م...) بأقصى ما أمكنه من سرعة، فلمّا ابتعد عن الحاجز قرابة مئتَي متر نهض (خ...) ضاحكًا بمرح، ثمّ أخذ يُلوّح بكوفيّته وعِقاله وهو يتراقص بخفّة، فقد شُفِيَ تمامًا من «الذبحة الصدريّة» ما إن تجاوز الحاجز بسلام...

في الطريق، حين سأله (م...)، وهو غارق في الضحك، كيف خطَرَت له تلك الحيلة المدهشة رمقَه بنظرة ماكرة وأجاب:

– سوق يا ابني، سوق... وين ضيَّعنا كل هالعمر...

لقطين... وخشب تين!

كانت (خ...) امرأة قهّارة، شرسة، سليطة اللسان، انتقلَت من الحارة التحتا إلى الحارة الفوقا بحكم زواجها بأحد ساكني هذه الحارة، فحملَت معها كلّ ما كان يسود الحارتَين من حساسيّات...

كانت تتفنَّن في خلق الإزعاج لكلّ مَن يتناولها من الجيران، مرّة بنفض البُسُط وأكياس الخيش لإثارة الغبار، ومرّة بشطف أرض الدار وتوجيه المياه مخلوطة برَوْث الدوابّ إلى طريق الحارة، ومرّة برفع حذائها مقلوبًا عند البوّابة نكايةً بإحداهنّ... وإن لم تروِ غليلها بمثل هذه الأساليب كانت تفتعل مشكلة تحت أيّ ذريعةٍ لتُفرغ مخزون جوفها من الشتائم المقذعة...

كان أقرب ما في الحارة من بيوتٍ إلى بيتها ذاك الذي يملكه (ع.أ.)، وكان هذا معروفًا بتأنُّقه، وحدّة طباعه، ولا يكاد يمرّ يوم دون أن يلقى من تصرّفاتها ما يؤذيه، ويُثير نقمته، وكانت هي تعرف ذلك فتُمعن في افتعال المضايقات له ما استطاعَت...

جاء (ع.أ.) يومًا إلى البيت فوجدها قد نصبَت إلى جانب الطريق، عند زاوية بيتها الخارجيّة، قِدرًا ضخمة تطبخ فيها مربّى اليقطين. وقد جعلَت في الموقد تحت القدر قطعًا ضخمةً من جذوع التين التي كانت لم تجفّ بعد. والمعروف أنّ خشب التين بطيء الاشتعال، وحين يوقَد يُرسل دخانًا كثيفًا يُثير الدمع، خصوصًا إن كان لم يجفّ تمامًا. وقف لبرهةٍ ينظر بحنقٍ وغيظٍ إلى الدخان المتصاعد، الذي أثار لديه سُعالًا حادًّا، كان يُعاني منه كمرض مزمن. لكنّه تحاشى أن يفتح مع الجارة السيّئة بابًا للمناكدة والشجار. وحين أخذ طريقه إلى داخل البيت راح يُردّد بصوت مسموع:

– إنّه يعني لقطين... وخشب تين. إنّه يعني لقطين...

وقد التقط الناس عنه هذا القول الطريف فظلّوا يتندَّرون به حتّى اليوم. ويُذكر أنّ كلمة «لقطين» تأخذ على ألسنة الناس في القرى معنى التبرُّم والزجر كأن يقول أحدهم لآخر وهو ينهره: روح عنّي يا لقطين...

أنتَ وربّك... دبّروها!

في فترة الخمسينيّات، عرفت بلدة حولا واحدًا من أنبه شبّانها، وأغربهم أحوالًا، هو (ح.م.) الذي اشتهر في المنطقة بكونه شيوعيًّا صارمَ الالتزام، وبروحه الانتقاديّة اللاذعة، وبتجرُّئه المكشوف على الاستخفاف بالدين إلى حدّ التجديف، رغم نشأته في بيت متديِّن، تعمره التقوى. وقد نشط (ح...) في تلك الفترة نشاطًا مذهلًا في الدعاية لمبادئه الحزبيّة، مكّنه من أن يجعل حولا بأسرها، من صغيرها إلى كبيرها، تعتنق الشيوعيّة، حتّى اعتُبرَت طوال ما يُقارب نصف قرن من بعدها قلعة اليسار الحصينة في الجنوب...

نزل (ح...) إلى بيروت، فأقام في بعض الضواحي عدّة سنوات، ثمّ هاجر إلى الكويت بحثًا عن عمل، لكن سرعان ما انكشف انتماؤه ونشاطه هناك، فاقتيد إلى المطار مغلول اليدين وسُفِّر إلى بلده في أوّل طائرة تُقلع!

في أوساط الستّينيات، وكان قد بدأ يكبر، وبدأت جمرتُه تبرد، عاد إلى حولا ففتح دكّانًا متواضعًا، واهتمّ بزراعة التبغ، ليؤمّن لعائلته موردًا معقولًا، وتمشّيًا مع المحيط راح يعتمر كوفيّة وعقالًا!

كان (ح...) دائم التردّد على عديسة بحكم مصاهرته لأحد بيوتها، ولأنّه وجد له فيها جماعة من مجايليه، من ذوي الأمزجة اللطيفة، والمعشر الطيّب، فكان يقضي بينهم معظم نهاره في المفاكهات، والتندّر، وتدخين النارجيلة. وقد اقتنى، بحسب المستطاع، سيّارة حمراء مستعملةً كانت تُجاهد مفاعيل الزمن والشيخوخة بصبر جميل، وكأنّها تخجل من أن تخذله كلّيًّا في أحلامه القديمة ببعض الرفاه. لكنّ أصعب ما كان يعترضها في دبيبها بين عديسة وحولا عقبةٌ كأداء تمتدّ من آخر عديسة إلى مشارف مركبا... كانت تتقطّع عندها أنفاسها.

في إحدى المرّات، وكان (ح...) راجعًا من عديسة باتّجاه حولا وبرفقته والده العجوز، وهو شويخ غير نَجَفي، توقّفَت السيّارة فجأة عند تلك العقبة...

وجّه (ح...) دفعة أولى على الحساب نحو السماء وترجّل ليرى إن كان بإمكانه أن يفعل شيئًا... وعلى غير دراية منه بمسبّبات الأعطال، راح يُدسدس تلافيف المحرّك، وأشرطته، والبوجيّات، وكلبَي البطاريّة. وبين الفينة والفينة كان يعود فيجرّب تشغيل المحرّك لكن دون جدوى... وبمقدار ما كان يفشل في محاولاته، المرّة بعد المرّة، كانت صواريخ غضبه نحو السماء تتلاحق!

خلال ذلك، وقف الوالد معدومَ الحيلة، مهمومًا من سماعه كلّ هذا الذي يُؤذي إيمانه، مستغفرًا الله لنفسه ولولده. وفي محاولة منه أن يُهدّئ من غضب ولده ويعظه، هتف بورع وانكسار:

– يا ولدي، يا حبيبي، اخزي الشيطان وقول بسم الله الرحمن الرحيم. يا ربّ يا قادر نوّر بصري وبصيرتي ويسّر طريقي... ووقِّف هاللغّة الكفريّة عاد... حرام عليك. بلكي الله بيهوّنها وبتدور...

حين سمع (ح...) كلامَ الوالد نفض يده من المحرّك ومشى. فلمّا صار على بعد خطوات منه صاح به والده: «لوين يا زلمي الله يسهِّل؟!»، فردّ عليه بشيء من الجفاء:

– مكمّل مشي ع البلد، وتاركك إنت وربّك تدبّروها...

لكنّه لم يتمادَ في الابتعاد كثيرًا إشفاقًا على الوالد المغلوب على أمره، بل وقف إلى جانب الطريق ينتظر مرور أيّ سيّارة يُمكن أن يستعين بسائقها على اكتشاف العطل الطارئ...

العلّامة إطلاقًا...

كان (ف.ب.)، ويُكنّى أبا سعيد، شابًّا بهيّ الطلعة، فكهًا، لطيف المعشر، ويكاد يعرف نصف سكّان لبنان لاتّساع علاقاته الاجتماعيّة... وكان إلى ذلك على إلمام ملحوظ بطرفٍ من كلّ علمٍ وفنّ. فكان إذا حضر مجلسًا يكاد يُصادر، طيلة الوقت، فرص الحديث من الآخرين حتّى أطلق عليه أصدقاؤه، تحبُّبًا، لقب «العلّامة إطلاقًا»!

لكنّ أبا سعيد كان، في ما يعلم به ويرويه، على درجة من العناد لا تتأتّى لغيره إلّا في النادر، ومتعشّقًا للجدال والمماحكة، لا تتوقّف أفكاره وآراؤه إلّا عند ما هو غير متوقّع أو مألوف...

ذات يوم التقى صدفةً في بيروت بشخصين من بنت جبيل، أحدهما كان صديقًا له منذ زمن بعيد، أمّا الآخر فكان يلتقيه لأوّل مرّة. وكما هي العادة في مثل هذه اللقاءات، عرّفه الصديق إلى صاحبه قائلًا إنّه فلان بن فلان...

قال أبو سعيد من فوره إنّه يعرف الوالد جيّدًا، فقد كان – رحمه الله – رجلًا محترمًا، جسيمًا، راعي شوارب، وصاحب عينين خضراوين لوزيّتين.

فوجئ الرجل بما ذكره أبو سعيد من مواصفات والده فردّ بشيء من التحفّظ والملاينة تقتضيهما حداثة التعارف:

– لا يا أخ أبو سعيد... ربّما تكون عم تحكي عن شخص ثاني بتعرفه. الوالد – بحمد الله – بعدو حيّ يُرزق، شيخ شباب، وهو غير شكل: سفيقاني، عيونو سود، وما إلو شوارب.

ردّ أبو سعيد بحدّة ومكابرة:

– أعوذ بالله... جسيم، عيونو خضر. وعَ شواربو بيهدّي النسر كمان!

قال الرجل ببعض الاستغراب، لكن برقّة:

– لا يا بو سعيد... أكيد بيّي مش هيك. بيّي مثل ما وصفت لك ياه... الله بيشهد!

ردّ أبو سعيد بتحدٍّ:

– ولَو... مش اسمه كذا. ما تقنعني. صورته قدّامي مثل ماني شايفك...

أوشك الرجل أن ينفعل لكنّه تماسك وردَّد بحنق مكتوم:

– ما دام هيك أني اللي لازم قلّك ولَو... شو بتعرف بيّي أكثر منّي؟!

قال أبو سعيد وقد احتقن وجهه واشتعلَت عيناه بشيء من التوتّر:

– نعم بعرفه أكثر منك...

تمتم الرجل متعجّبًا:

– يا سبحان الله...

فيما كان يُـردّد في سرّه «أمـرك عجيب يا صاحبي، راسك ما بيكسّره شاكوش».

كان يمكن لهذا الجدل أن يستمر مدّة أطول لولا أن تدخّل الصديق قائلًا لصاحبه بشيء من التهكُّم، وهو يضحك:

– بدّك قلّك كيف صار بيّك من جديد؟! مثل ما عم يوصفو أبو سعيد. يمكن من زمان إنتَ مش شايفه... يا الله حلّوها بقى...

على هـذا خُتم الجـدال ومضى كـلٌّ فـي سبيله، لكنّ أحـدًا من الفريقين لم يكن مقتنعًا أو راضيًا، ولا سيّما أبو سعيد!

طعنةٌ بطعنة...

في زمن الخمسينيّات، يوم كانت الكروم في عديسة ما تزال عامرة بزروعها وعرازيلها، وذات ليلة صيف، عند السحر، التقى النسيبان (أ...) و(ق...) بين الكروم، وكانا معروفين بخفّة اليد، وبأنّهما من زوّار الليل للكروم غير المحروسة.

كان (أ...) راجعًا من «الغزو» وقد شال في مرفقَيه سلّتين كبيرتين من العنب والتين، مليئتين تمامًا. أمّا (ق...) فكان لا يزال في طريقه إلى «الغزو»...

سأل (ق...) نسيبه (أ...) بلهجةٍ ذات معنى:

– وين كايِن يا بو الليل؟!

فردّ عليه (أ...) باللهجة ذاتها:

– مطرح ما إنتِ رايح... يا آدمي!

ثمّ مضى كلٌّ منهما في سبيله، وقد نال من صاحبه طعنةً بطعنة...

حشيشة والله... حشيشة!

منذ مطلع الثلاثينيّات، حتّى ضياع فلسطين سنة 1948، كانت مدينة حيفا تُمثِّل لمعظم سكّان المناطق الحدوديّة من جنوب لبنان ما تُمثِّله لهم اليوم مدينة بيروت من توفيرٍ لفرص العمل. وقد نشطَت عمليّاتُ التهريب عبر الحدود بين لبنان وفلسطين، في الاتّجاهين على حدٍّ سواء، فتكوَّنَت شبكاتٌ تتمتّع رؤوسها، ولا سيّما في عديسة، بحنكةٍ مدهشةٍ في ابتداع طرق التحايل وإيجاد المخارج من المآزق والمداهمات...

في إحدى العمليّات الخطرة، كُلِّف (م.أ.)، وهو راعي مواشٍ أساسًا، وأحد عناصر الخدمة في واحدة من شبكات عديسة، بنقلِ كمّية من حشيشة الكَيف تُقدَّر بعشرين كيلوغرامًا، من الخالصة (وتُسمّى اليوم كريات شمونة) إلى حيفا. وكانت خطّة العمل تقضي بأن تُعبّأ هذه الكمّية في صفيحة معدنيّة، وأن تُشحن ضمن ثلاث صفائح معبّأة بزيت الزيتون.

استقلَّ (م.أ.) باصًا كان يعمل على خطّ الخالصة – حيفا. وقد أمَّن البضاعة على سطح الباص، متعمِّدًا أن تكون في مكان واضح بين أمتعة الركّاب وحوائجهم، لغاية هو أدرى بها...

قبل أن يصل الباص إلى مشارف الناصرة بقليل، فوجئ (م.أ.) بوجود دوريّة تفتيش على الخطّ. توقَّف الباصُ، وصعد أحد مأموري الدوريّة إلى سطحه يتفحّص ما عليه من حوائج وأغراض. فلمّا وصل إلى الصفائح نادى مَن أعلى طالبًا إلى صاحبها أن يترجّل خارج الباص.

ترجّل (م.أ.) بهدوء، وحين سأله المأمور عن محتوى الصفائح أجابه برباطة جأش:

– زيت زيتون يا أفندي...

قال المأمور مستوثقًا:

– أكيد مش شيء ثاني؟

– مثل شو يعني؟

– يعني ممنوعات...

ردّ (م.أ.) بما يُشبه التحدّي:

– مبَلى حشيشة... أنا غلطت!

نظر إليه المأمور مشدوهًا وهو يتساءل باستغراب:

– إيش قلت... إيش؟

ردّ (م.أ.) بثبات:

– قلتلّك حشيشة... حشيشة كيف!

قال المأمور بوعيدٍ مبطّن:

– عارف حالك يا ذكي إيش عم تحكي؟!

أجاب:

– نعم يا سيدي... نعم. عارف حالي. قلتلّك حشيشة. واللهِ حشيشة.

والتفَت نحو بقيّة أفراد الدوريّة وهو يُردّد بمكر:

– يا عالم. يا هو. يا أفنديّة. عم قول له حشيشة، ليش مش عم يصدّقني؟!

كان صوته يعلو شيئًا فشيئًا. وفجأة بدأ يتظاهر بالاهتياج فراح يصرخ:

– العسل عندكن حشيشة. الزيتون حشيشة. الجبنة حشيشة، المخلَّل حشيشة، الزيت حشيشة. شو بِتعبّي بالتنك يعني... شو؟! نعم قلت حشيشة، وهذي إيديٍّ جاهزة للكلبشة...

ترجّل المأمورُ عن سطح الباص، وهو يهزّ رأسه متضاحكًا، ثمّ أعطى الإشارة للسائق بالإقلاع متوهّمًا أنّ (م.أ.) من بسطاء الناس السُذّج. ولم يخطر على باله أنّ باستطاعة هذا الأخير أن يأخذه إلى بحر حيفا ويرجعه من هناك عطشان... بحسب قول المثل!

الداخل بين التومة وقشرتها...

كان (ج...) رجلًا قصير القامة، وزوازًا، ومن ذلك الصنف من الناس الذين لا يرون مشكلةً إلّا دسّوا أنوفَهم فيها. وكان إلى ذلك نمّامًا، مُفسدًا، لا تشبُّ في البلدة فتنة إلّا كان هو موقد نارها، ونافخ كيدها...

ذات يوم سمع صياحًا في بيتٍ مجاور عند رأس الزقاق الذي يقع بيتُه في الطرف الآخر منه. كان جالسًا يتناول فطوره فما استطاع إلّا أن يستطلع الخبر عن قرب، فترك الطعام، وهبَّ يعدو باتّجاه الصياح...

كان الباب مغلقًا، والصيّاح ينبعث من داخل البيت بين العجوز (ع...) وولده الشاب (س...). وفهم (ج...) ممّا سمعه أنّ الوالد العجوز باع حمارًا كان يملكه بثمن زهيد، ما أثار عليه احتجاج ولده فتنافرا واحتدم بينهما الجدال.

دفع (ج...) الباب واندفع إلى الداخل، دون إذن ولا دستور، كما يُقال. وبلهجة مَن له مَونة على الأب وابنه سأل مُفَنجِرًا عينيه الصغيرتين: شو القصّة يابا... صوتكم واصل لآخر الحارة؟! فجاءه الجواب من الاثنين معًا: ما في شي... ما في شي...

قال: لكن عَ شو كلّ هالصياح والمعايطة؟!

قال (س...) بحدّة: يا أخي هذا شي بيناتنا. إنت شو بيخصّك؟!

صاح (ج...) متظاهرًا بغيرته على هيبة الوالد، وهو في الحقيقة يُنفّس عن غيظٍ ممّا سمع:

– يعني ما موقّر حدا قدّامك... ما تكون كمان ضربت الوالد يا عقوق؟! لأنّي سمعت صريخه لحدّ بيتي!

قال ذلك وأهوى بكفّه الصغير على وجه (س...).

كان (س...) شابًّا فتيًّا، أميَل إلى النحول منه إلى الامتلاء، لكنّه كان متين البنية، عصبيًّا، يشعل رأسَهُ العنفوان. وكان الوحيد الباقي من عائلة أبيه، يعيش معه ويرعاه. فقد مات جميع إخوته من ذكور وإناث ما عدا واحدًا منهم ذهب إلى الأرجنتين منذ ثلاثين عامًا وانقطَعَت أخباره.

وكان الوالد (ع...) رجلًا مفرطًا في حساسيّته تجاه الآخرين، جبروتيًّا، متشدّدًا، يميل إلى الوحدة والانكفاء عن الناس، وتغلب عليه حدّة الطباع... ورغم ما كان يُعانيه أحيانًا من جفوةٍ أو عناد في ولده، انقطع إليه، واحتضنه بكلّ عطفه واهتمامه، وأفرط في مسايرته على ما يحبّ ويهوى، فنشأ (س...) نشأة الولد الوحيد المدلّل، المحتمي بقوّة والده...

أحسّ الوالد بالدم يغلي في عروقه، وبصوتٍ يعصف في داخله: باطل!!! أَيُضرَب (س...) من رجلٍ متطفّل، لا علاقة له بما بينه وبين والده؟!

إذًا فقد اجترَأ (ج...) على المسّ بالمحرّمات، وتعدّى حدًّا تُبذل دونه الروح!

صاح محتدمًا وقد توقَّدَت عيناه بغضب مخيف:

– يا ابن الفاعلة التاركة، عم تتجرَّأ وبتضرب الما حدا ضربو قبلك؟!

وقبل أن يُكمل قوله، كان (س...) قد «بلّ يده» في الضيف المتطفّل... وفي لحظةٍ خاطفةٍ لم يشعر (ج...) إلّا وأيدٍ أربع تنهال على جسده الضئيل كأنّها المطارق، وكما هي عادته في كلّ مرّة، لم يلبث أن تكوّم بين الأرجل يعوي ويستغيث... كأنّما وقعَت عليه صخرة!

تجمّع الناس على صراخ (ج...) فانتشلوه من بين أيدي الرجلين. فلمّا أصبح في مَنجى منهما، وسُئل عن سبب ما جرى له، ادّعى أنّه كان يلعب دور «المحامي» بين الوالد وولده، وقد عنّفه أحدهم لحظتئذٍ قائلًا:

– الله يخرب بيتك، ما بتّوب ولا بتتعلّم. ما سمعت شو بيقول المثل: يا داخل بين الثومة وقشرتها... ما بينوبك غير ريحتها؟!

لكن مَن شبّ على شيء شاب عليه. فقد عاش (ج...) عمرًا مديدًا ولم تفارقه تلك الطبيعة رغم ما جلبه على نفسه وعلى الآخرين من مشاكل وويلات!

رجل... من نوع آخر!

استعدادًا لحملة «الرديف»، التي سيَّرتها السلطنةُ العثمانيّةُ على اليمن سنة 1889 لقمع إحدى الثورات الناشبة هناك، لجأَت إلى طلب الشباب في منطقة سوريا للخدمة الإجباريّة، وكانت العديسة من جملة البلاد التي طولب شبابها بالخدمة. وقد اعتمد الأهالي طريقةً للتحذير من قدوم المأمورين المكلَّفين بالمداهمات وسَوق الشبابِ إلى المراكز العسكريّة، بإطلاق صرخاتٍ خافتةٍ في الجواري بتعبير «عباية» أو «خرا واوي». فكان الشبابُ بمجرَّد سماعهم هذه الصرخات يُسارعون إلى الاختباء في الأحراج والكهوف وبيوت التبن.

ومن أطرف ما حصل في العديسة آنذاك أنّ أحدهم، ويُدعى أسعد عيسى رمّال، كان في جملة المطلوبين، وقد اضطرّ أثناء إحدى المداهمات إلى التنكُّر في زيّ امرأة، والخروج من القرية مع بعض صبايا كنّ في طريقهنّ إلى البرّية... لكنّ أحد المأمورين لاحظ عن بُعد أنّ مشيته مختلفة عن مشية الإناث فقُبض عليه وسيق إلى الخدمة في اليمن مع آخرين من شباب العديسة ذهبوا ولم يرجعوا...

لكنّ أسعد هذا كان واسعَ الحيلة، وعلى درجة عالية من الذكاء، رغم أنّه كان أُمّيًّا. فقد وجد ذات يوم طريقًا للهروب من الخدمة، بعد أن شارك في المعارك لبعض الوقت، وشاهد أهوالها...

وقد اتَّخذ قرارًا بالعودة إلى بلدته العديسة، رغم بُعد المسافة الشاسعة في ذلك الزمن، بالنسبة لشخصٍ راجلٍ ومُلاحق. وقد اضطرّ في طريق العودة إلى السير متخفّيًا، وحافي القدمين، لمدّة ستّة أشهر، بعد أن تقطّع حذاؤه في المفازات الصحراويّة والبراري والوعور...

في تلك الأثناء، كان أسعد عيسى يملك أربع ليرات ذهبيّة عثمليّة، وقد لجأ، خوفًا من أن يسلبه إيّاها بعض قطّاع الطرق، إلى أسلوب غريب في التعمية والإخفاء؛ فكان يبتلعها في جوفه، وحين يتغوّط وتنزل مع الغائط يمسحها أو يغسلها، ثمّ يُعاود ابتلاعها المرّة بعد المرّة، حتّى وصل إلى العديسة سالمًا وليراته الأربع في أمان!

وعلى ذكر هذا الرجل، فقد أدركتُهُ، وهو ينحدر إلى الشيخوخة، لما يُقارب عشرين عامًا. وقد عمل معظم حياته في رعاية عجّال[1] العديسة، والداشورة[2]. وكان متين البنية، عصبيًّا، يقظًا، حلو الحديث والمعشر. وقد أنجب ستّة من الذكور، وثلاثًا من الإناث تناسلوا بكثرة حتّى أصبحوا يشكّلون اليوم قسمًا كبيرًا من «الرماملة» في البلدة،

---

1 العجّال هو قطيع أبقار البلدة وعجولها.

2 الداشورة هي مجموعة البغال والكدش والحمير المملوكة من أهالي القرية.

وقد سمعتُه لأكثر من مرّة يقول في بعض جلساته إنّ مَن ينادونه بقول «يا جدّي» قد بلغوا 120 نفسًا.

كان هذا منذ نصف قرن تقريبًا، ولو قُدِّر له أن يعيش حتّى اليوم لرأى العالم العدد قد تزايد كثيرًا بكلّ تأكيد...

كان أسعد عيسى من صنف الرجال الحاذقين: نجّارًا، وحدّادًا، وصانع أعواد حراثة، و«شو ما شافوا عينيه بيشتغلوا إيدَيه» بحسب التعبير الدارج.

عمَّر هذا الرجل إلى ما فوق التسعين، ولم يُعرف عنه أنّه لجأ مرّة إلى طبيب للتداوي طيلة حياته سوى مرّة واحدة... سبقَت موته بعدّة أيّام!

أنا شو ناقصني؟

في إحدى سَفراته إلى النبطيّة، وكان سوقها منعقدًا يومذاك، التقى (م.ش.) بصبيّةٍ على درجة لافتة من الجمال اسمها (ز...) فأعجبته كثيرًا، ورغب في الزواج بها. لكنّه تريَّث في مفاتحة ذويها برغبته لأنّه كان يخشى أن ترفضه زوجًا، فهي لم تكن على علم برغبته تلك؛ وهو كان ضئيل الجسم، قميئًا، وعلى حدّ الكفاف من الرزق...

مرَّت أسابيع و(م.ش.) يُقلّب الأمر بينه وبين نفسه، على مختلف وجوهه دون أن يجد له مخرجًا معقولًا. وأخيرًا، لم يجد في اليد حيلة سوى أن يستعين بأحد المتنفّذين في البلدة واسمه (س.ط.)، الذي كان حينها يعمل في خدمة كامل بك الأسعد... موكلًا إليه أن يُدبّر الأمر بحسب ما يرتئيه مناسبًا...

قصد الرجل، مع وفد من البلدة، أهل الصبيّة (ز...) في النبطيّة، متسلّحًا بموقعه من الزعيم الكبير، ومتظاهرًا بأنّه يطلب (ز...) لنفسه، لكنّه عرَّف عن نفسه حين أُجري العقد باسم (م.ش.)... معتمدًا على جهل الأهل بحقيقة شخصه.

كان (س.ط.) شابًّا وسيمًا، مهيبًا، فائق الوجاهة، فلم يجد الأهل، ومعهم العروس المطلوبة، أنّ في وسعهم سوى الترحيب به، والقبول بطلبه، إكرامًا لكامل بك ولكلّ مَن يلوذ به من الناس...

ليلة الدخلة فوجئَت العروس المخدوعة برجلٍ لم تره من قبل، يقتحم عليها الغرفة ويقترب منها مبتسمًا، فصاحَت في وجهه مذعورة واجفة:

– مين أنت؟!

قال (م.ش.) بهدوء:

– أنا عريسك...

صرخَت (ز...) مغتاظة:

– مش صحيح أبدًا... مش صحيح... أنا ما بعرفك ولا بتعرفني. عريسي كان واحد تاني غيرك...

حاولت (ز...) أن تهرب باتّجاه الباب، لكن (م.ش.) أمسك بها قائلًا:

– إخزي الشيطان يا مخلوقة، وما تجرّسي حالك وتجرّسينا قدّام الناس. إن شالله بتلاقيني بعدين قدّ خاطرك. أنا عريسك قدّام الله وعبيده شرعًا فرعًا. أنا شو ناقصني؟ أعور والّا ألوَق؟ أنا من أحسن الناس بالبلد يا بنت الناس...»

طال الجدال بين العروس المخدوعة والعريس الغشّاش، ولم ينفضّ إلّا على شرط أن ينام (م.ش.) تلك الليلة خارج البيت، ويتركها تفكّر في الأمر حتّى اليوم التالي...

لم تذق (ز...) تلك الليلة طعم النوم. وبعد تفكير عميق في وضعها من شتّى وجوهه ارتأَت أنّ من الأسلم لكرامتها أن تنصاع لقدرها الغاشم وتقبل بـ(م.ش.) زوجًا لها لأنّه بمقاييس واعتبارات تلك الأيّام سيُعتبر أيّ شيء خلاف ذلك نشوزًا مَعيبًا. وإن لم يقبل مَن أصبحَت بحسب الشرع زوجًا له أن يُطلق سراحها ويُطلّقها، فستظلّ معلَّقة إلى ما شاء الله، تلاحقها الأقاويل، وتلوكها الألسنة...

وقد عاشَت (ز...) بعد ذلك زوجة طبيعيّة وقامَت بكلّ واجبات الزوجة الصالحة معتصمةً بالسُترة والشرف، لكنّ اختلاطها بالناس ظلّ محدودًا جدًّا حتّى تُوفّيَت بعد عمر مديد...

إنت بس افتح لي هالشبّاك!

كان أبو قاسم (م.ع.) رجلًا فشّارًا، شديد الاعتداد بنفسه، رغم أنّه كان كاريكاتوريّ المظهر: عينان جاحظتان مرتبكتا النظرات، وأنفٌ زنوجيٌّ واسع المنخرين، وفمٌ منحرفٌ عريضُ الشفّة السُفلى على صِغَرٍ في العليا، وظهرٌ محدودبٌ كالقوس. لكنّ أبا قاسم كان ذكيًّا، فكهًا، إذا حضر في مجلس شدَّ إليه الإنتباه، وأشاع جوًّا من المرح بمرويّاته الغرائبيّة، وبهوراته، وتعليقاته الساخرة، وكان إلى ذلك صاحب حميّة وعنفوان وميل إلى التمرّد...

انتقل أبو قاسم إلى بيروت في فترة مبكّرة أواسط الأربعينيات، لكنّ أحدًا، خارج نطاقه البيتيّ، لم يكن يعرف طبيعة عمله في كسب الـرزق. وحين تسامع الناس في الخمسينيّات أنّ سُبُل العمل في الكويت قد فُتحَت في وجه الأجانب، سارع بالسفر إلى هناك حيث أنشأ مطعمًا صغيرًا مختصًّا بالمأكولات اللبنانيّة. وسرعان ما استقطب هذا المطعم شبّان البلدة الذين راحوا يتوافدون إلى الكويت بوتيرة متصاعدة، زرافات ووحدانًا...

كان هؤلاء الشبّان، الحديثو العهد بالغربة، والقليلو التجربة، يجدون في أبي قاسم مؤنسًا، ومرشدًا، ومدبّر أعمال، وحافظًا للأمانات، ودائنًا لمَن فرغَت جيوبه من المال قبل أن يوفَّق إلى عمل...

كان أبو قاسم في تلك الفترة قد تجاوز الستّين من العمر، وقد ضعف بصره نتيجة إصابته بالماء الزرقاء، لكنّه رفض إجراء العمليّة لأنّه لم يقدر أن يتخيّل أو يُصدّق كيف للأطبّاء أن يجرحوا بؤبؤ العين، ولا يسيل ماؤها، فيفقد صاحبُها البصر، ولذلك فضَّل في البداية «البقَّيشة على العمى» كما يُقال. وقد استعاض عن العمليّة بنظّارتين طبّيتين راحَت عدستاهما تتضخّمان، من فترة إلى أخرى، حتّى أصبحتا بسماكة عدسة «اللُوب»، فكانت عيناه، حين ينظر من خلفهما، تبدوان مضخّمتين كعينيْ شخصيات الـ«مابيت شو»!

وقد جلب عليه ذلك تندُّر الشبّان ومعابثاتهم، فكان يُخالس بعضهم بعضًا الضحكات المكتومة. وبين حين وحين، كان يحلو لبعضهم أن يُخضعه لامتحان بصريّ كأن يُلقي إليه من ثمن طلبيّته بعملةٍ معدنيّة من فئة الخمسة فلوس على أنّها عشرة، أو أن ينتفض أحدهم متصنّعًا الذُعر من أنّ فأرة فرَّت من بين قدمَيه، فيهبّ أبو قاسم مبعثرًا أدوات المطعم وأوانيه بحثًا عنها...

ذات عشيّة، وكان بعض هؤلاء الشبّان متحلّقين حول أبي قاسم يتذاكرون أخبار الأهل والأقرباء في البلدة، ويتندّرون بخبريّاتهم في العمل، سأل أحدهم أبا قاسم بمكرٍ مبطّن إن كان لا يزال يُبصر جيّدًا

صورة معلّقة على أحد حيطان الغرفة، فانتفض أبو قاسم محتدًّا وقد تقلَّصَت شفتاه وقال:

– وَلَك يا مقرود شو عم بتخرّف إنت... افتح لي هالشبّاك تفرجيك إنّي بِقشَع من هون لإيران...

وقد أعجب ردّ أبي قاسم الشبّان فانفجروا مغرقين في نوبات متتالية من الضحك الصاخب حتّى دمعَت منهم العيون...

أبو رشرش والعرموني...

بطل هذه الطُرفة، التي مرّ على سماعي لها زمن بعيد، هو شخص من العديسة، مات في حدود خمسينيّات القرن الماضي، وكان يُدعى «أبو رشرش»...

كان «أبو رشرش»، كالسواد الأعظم من مجايليه، أمّيًّا، رقيق الحال، وعلى درجة من الطيبة تصل إلى حدّ السذاجة، لكنّه كان عنيدًا، مكابرًا، لا ينزل على رأي أحد؛ وقد أمضى ردحًا طويلًا من عمره في تجارة الفخّار.

كانت كلّ قسمة «أبو رشرش» من الدنيا «خشّةٌ» صغيرةٌ، منزويةٌ، ذات سطح ترابيّ، إضافة إلى حمار وبغل اتّخذهما عدّة له في عمله. لكنّ بغل «أبو رشرش» كان متميّزًا عن بني جنسه بأمرين: طبيعته الجامحة أثناء سيره في الدروب الجبليّة رغم أنّه لم يكن شموسًا، وتعشّقه للإناث من الحمير البيضاء؛ ولذا سمّاه «أبو رشرش» بـ«غزيِّل»! وقد استمرّ التواؤم بين المخلوقين لسنوات طويلة حتّى كان يوم مشؤوم، وقعَت فيه واقعة لم تكن في حسبان أحد. فخلال

عبور «أبو رشرش» بحمولته من الفخّار من راشيّا باتّجاه العديسة، ولدى وصوله إلى طرف مرج الخيام، لناحية الجنوب، بصر «غزيِّل» من بعيد بحمارةٍ بيضاء مغناج من حمير «القليعة» يبدو أنّها كانت طالبةً القرب، فاستثير، وخرج عن طوره، ودون أن يُدخل في الحسبان قيمة ما على ظهره من رزق لصاحبه، هبّ للّحاق بها عدوًا ما أدّى إلى تراخي أحزمة الحِمل، وسقوطه إلى الأرض محطّمًا شرّ تحطيم، بحيث لم يسلم منه سوى بعض الأباريق...

منذ تلك اللحظة كره «أبو رشرش» «غزيّل» كرهًا مريرًا لأنّه قضى على رأسماله قضاءً مبرمًا، وأقسم يمينًا معظَّمًا على القرآن أن لا يعيش معه بعد الآن تحت سقف واحد إلّا ريثما يجد له مشتريًا، ولو بأبخس ثمن، وفي بلدة لا تبعد أقلّ من ثلاثة أيّام سيرًا على قدم...

وقد عرض العديد من أهالي شبعا على «أبو رشرش» مشترى هذا «الغزيِّل» لصلاحيّته في القيام بمهمّة تهريب البضائع عبر الحدود مع الجوار السوريّ؛ لكنّه كان يرفض كلّ العروض، حتّى لو كانت مغرية، خشية أن يعود فيلتقيه يومًا في بعض أسواق المنطقة، أو في مكان آخر خلال أسفاره...

وللمصادفة، فقد مرّ في العديسة، ذات يوم، رجلٌ من عرمون جاء إلى المنطقة يبحث عن بغل أو بغلين مقتدرين، صالحين لنقل حجارة البناء من المقالع. وقد وجد ضالّته المنشودة عند «أبو رشرش» بمقدار ما وجد فيه «أبو رشرش» الشخص البعيد الديار، الذي يضمن

لديه أن لا يرى لـ«غزيِّل» وجهًا إلى الأبد، فقد كان السفر بين العديسة وبيروت وما يجاورها، حتّى تلك الفترة، لا يزال شبه معدوم...

تمّ الاتفاق على الثمن بسهولة بين الفريقين، لكنّ الشاري ادّعى أنّه لا يحمل في جيبه كامل الثمن لأنّه اشترى بغلَين لا يزالان في عهدة صاحبهما في الخيام، ولم يكن يحسب أنّه سيشتري المزيد. وقد استطاع بنوعٍ من الدهاء، ومعسول الكلام، أن يُقنع «أبو رشرش» بأن يكتب له سندًا على نفسه بالمبلغ يستحقُّ خلال عشرة أيّام.

مرّ على غياب الشخص العرموني شهر... شهران... ثلاثة، ولم يظهر له أثر ليعود فيوفي السند المستحَقّ عليه، ما جعل شكوك «أبو رشرش» تزداد يومًا بعد يوم في أنّه وقع ضحيّة احتيال. وذات يوم قال له أحد الجيران بأسف:

– العوض بسلامتك يا صاحبي... نَصَب عليك العرموني وراح...

فردّ عليه «أبو رشرش» بمكابرته المعتادة:

– وين راح يروح... عيّن خير. كلّه مكتوب عليه بالقلم والورقة...

وقد تبيّن لاحقًا، مع المراجعة والتقصّي، أنّ العرموني باع البغل بعد أيّام من وصوله إلى بلدته، واشترى بثمنه بطاقة سفر إلى فنزويلّا...

أمّا «أبو رشرش» فظلّ يُردّد، وكأنّه يُعزّي نفسه، المرّة بعد المرّة:

– يهفى من بين الدواب إن شاء الله... أوّله خسارة وآخره خسارة...

صاروا 16 يا بو حسين!

كان أحدهم، وأعفُّ عن ذكر اسمه هنا، يملك حانوتًا صغيرًا في البلدة منذ ما يقارب عشرين عامًا، ومع تقدُّمه في العمر أُصيب بسرطان الرئة فانقطع عن دكّانه ولازم الفراش.

وكان مختار البلدة الأسبق الحاج علي سلمان رمّال يعوده أكثر من مرّة في الأسبوع، على جاري عادته في زيارة مَن يرميه المرض من أصدقائه وأبناء جيله.

ذات يوم رافقه في زيارته لهذا الرجل أحد أنسبائه، وكان هذا قليل التعاطي في أمر اللياقات الاجتماعيّة، لكنّه نزل عند طلب المختار في موضوع الزيارة.

كان الرجل راقدًا في فراش مُدَّ له في فناء داره، ترويحًا عن نفسه، وتيسيرًا لذويه في استقبال الزوّار. وكان ما يزال حاضر الذهن رغم تردّي وضعه الصحّي، وشحوب لونه.

ما إن استقرّ المقام بالزائرين، قريبًا منه، حتّى توجّه إلى المختار قائلًا:

– صاروا 16 يا بو حسين!

ردّ المختار بجدّية:

– فيهم العافية إن شاء الله...

لم يفهم النسيب المقصود من قوله هذا، لكنّه كتم فضوله ريثما ينصرف هو والمختار من الزيارة.

في بعض الطريق، وقبل أن يبتعدا كثيرًا، استوضح النسيب من المختار عمّا تعنيه هذه الـ16...

ضحك المختار بمرح ساخر، وهو يُفشي لنسيبه أنّ الرجل كان يقصد أنّه قد استهلك منذ وقوعه في المرض 16 كرتونة عصير بهدف التغذية في مواجهة المرض...

والمعروف أنّ هذا العصير المعلّب في كرتونة صغيرة ذات شكل خاص ليس سوى مركّب صناعيّ غير ذي فائدة طبيّة... لكن يبدو أنّ الرجل كان يعتبره عقارًا سحريًّا ينتظر منه الشفاء؟! ولا يُعرف إن كان استزاد منه لأنّ المرض لم يُمهله سوى قرابة أسبوعين بعد تلك الزيارة...

شو الزعَل... يا بو رشيد؟

كان أبو رشيد من أبناء «حولا» أصلًا، وقد تزوّج بامرأة من عديسة تُسمّى سعدى، لكنّه لم يُرزق منها بأولاد.

وكان رجلًا وقورًا، فطريَّ الذهن، حفيًّا بضيوفه، وخبيرًا بصنع القهوة المرّة. وقد اعتادَت جماعة من شاربي النارجيلة في البلدة وبعض الجوار أن تلتقي عنده في أوقات فراغه بصورة شبه يوميّة، فيجلسون بين الضُّحى والظهيرة، أو بين العصر والمغرب، على مصطبةٍ طويلة حمراء، أمام بيته في عديسة.

كان من أبرز هؤلاء الضيوف، وأكثرهم مداومة، السيّد رشيد خليل، أحد وجوه آل السيّد، وكان في زمانه أحد القلائل في البلدة الذين يقرأون ويكتبون. ورغم محدوديّة تحصيله كان يملك ذهنًا منفتحًا «علميًّا» وروحًا ساخرة.

في إحدى الجلسات توجّه السيّد رشيد إلى مضيفه على مسمع من الحاضرين يسأله إن كان يعرف ما هو الزعل.

فكَّر أبو رشيد مليًّا في السؤال دون أن يجد في رأسه جوابًا. وأخيرًا تمتم باستسلام:

– والله يا بو محمود ماني عارف... سؤالك بيحيِّر!

قال أبو محمود وهو يبتسم قليلًا:

– الزعل، يا بو رشيد، هوا...

نظر أبو رشيد إليه مبهوتًا وسأله بدهشة:

– كيف يعني هوا...؟!

قال أبو محمود:

– يعني لنقول بتكون زعلان، بتعمل هيك...

وزفر زفرة طويلة مسموعة ومرفقة بأُفّ، ثمّ أردف: «بتلاقي راح عنّك الزعل وارتحت... مش هيك؟!».

قال ذلك بلهجة واثقة، وهو يحملق في وجوه الحاضرين مستطلعًا ردود فعلهم.

ولم يملك أبو رشيد إلّا أن يُبدي موافقته متعجّبًا، وكأنّه أمام اكتشاف باهر، فتمتم بصوت منخفض عميق: «بالفعل إنّك رجّال حكيم!».

وتأكيدًا لذلك هزّ أكثر الحاضرين رؤوسهم علامةً على الموافقة...

شو خايف عالعورا؟!

في نقطة وسطى من الطريق القادوميّة بين عديسة وكفركلا، وفيما كان (س.ب.) متّجهًا بصحبة زوجته إلى دير ميماس لعرضها على طبيب هناك، افتقد معطفه فلم يجده...

كانت الزوجة المحمولة على دابّة يجرّها الزوج مُتدثِّرة بالمعطف لشعورها بالبرداء، ولم تعِ أين ومتى انزلق عنها.

وفي حالةٍ من الحنق العارم، استبقى (س...) زوجته حيث هي، وعاد أدراجه مُسرعًا من حيث أتى، باحثًا عن المعطف.

كان قد التقى في بعض الطريق، قبل دقائق، برجل من كفركلا اسمه (م.أ.)، معروفٌ بأنّه من أصحاب السوابق، فخشي أن يكون المعطف وقع في يده وسرّع في إخفائه خوفًا من المطالبة... ولكنّه فوجئ به يمشي الهوينا، على مسافة ليست ببعيدة، ما أكّد الريبة في نفسه، إذ إنّ المدّة التي مرّت على التقائه به كانت كافية لأن يكون قد وصل إلى عديسة...

استوقفه (س...) صارخًا:

– يا (م...) وين الكبُّوت؟

التفتَ (م...) متظاهرًا بالدهشة:

– أيّ كبُّوت يا عمّي... عن شو عم تحكي إنـت... أنا لا شفت كبُّوت ولا جاكيت!

صاح (س...) بحنق:

– وحياة ميّة نبيّ، الكبُّوت ما زمط من ديّاتك، شو انشقِّت الأرض وبلعته؟ ما حدا مَرَق من هون غيرك...

ردّ (م...) بانفعال:

– يرحم بيَّك يا متاع عديسة كفّ عنّي شرَّك. مطرح ما ضيّعته روح دوّر عليه...

كان (س...) مضطرًّا للرجوع إلى حيث ترك زوجته في البرّية فصاح متوعّدًا وهو ينصرف:

– رح تشوف كيف بدّك تخلقه مثل ما ربّك خلقك... إسّا مش متفضّي لك... ماشي الحال...

في طريق العودة من دير ميماس، وكان وضع الزوجة قد تحسّن قليلًا، عرّج (س...) على مجلس إمام كفركلا السيّد محمّد فضل الله ليعرض الأمر بين يديه.

كان المجلس مليئًا بوجهاء البلدة، الذين نظر بعضُهم في وجوه بعض مستنكرين، حين روى لهم (س...) الحادثة. على الفور أرسل

السيّد في طلب (م...) فلمّا مَثَل بين يديه وعظَه السيّد ببعض كلمات مؤثّرة في حفظ أرزاق الآخرين وأماناتهم قبل أن يسأله عن حقيقة الموضوع.

أنكر (م...) إنكارًا قاطعًا أن يكون رأى المعطف. فلمّا ألزمه السيّد بحلف اليمين الشرعيّ أظهر حماسةً في استعداده لذلك. وهنا تدخّل أحد الحاضرين (ع.ع.) فطلب من السيّد أن يسمح له بأن يختلي قليلًا بالرجل في الخارج فأُجيب إلى طلبه...

في الخارج قال (ع.ع.)، معنّفًا الرجل بما يُشبه الزَجر:

– عم تتنطَّح يا (م...)، يا قليل الدين، لحلف اليمين، ما بتخاف إنّو يمينك الكاذب يضرّك بنفسك أو بصحّة ولادك؟!

ردّ (م...) بفجاجة:

– نعم يا سيّدي بحلف ميّة يمين وقلبي قـوي... شو خايف عالعورا؟! (وكان يقصد ابنة له في حدود العاشرة، عوراء).

قال بحزم:

– الحرامي إن قالوا له احلف يمين بيقول إجا الفرج... لا تاخذها ولا تجيبها يا (م...) مطرح ما خبّيت كبّوت الزلمي روح جيبو عالسگّيت، ولا قالت الناس ولا سمعنا. وإذا لأ فأنا رح كلِّف حدا فورًا يطلع بنبش الديرة حجر وحجر. وإن بيّن إنّك مخبّيه رح نغرّمك بتنكة كاز للجامع... شو بتقول؟

بعد طول جدال اعترف (م...) أمام السيّد والحضور بأنّه قد خبّأ المعطف تحت كومة من الحجارة على بعد أمتار من الطريق حيث نُبش وأعيد إلى صاحبه.

... إلّا دبّ حولا!

كان خليل بك الأسعد في زمانه زعيم جبل عامل الأكبر، والأشدّ سطوةً بين بقيّة الزُعماء. وقد تبوّأ بعض المراكز الرسميّة المرموقة التي مكَّنَته من أن يكون نافذ الكلمة في الإدارات الحكوميّة.

حين وُضع الخط الهمايوني الصادر أيّام السلطان عبد المجيد موضع التنفيذ، والخاصّ بتمليك الأهالي ما كان يُسمّى الأراضي الأميريّة، سعى خليل بك لأن يكون شريكًا للفلّاحين بنصف الأراضي الجاري تمليكها في ناحية «جبل هونين». وقد وُفّق في مسعاه فاستحوذ على نصف أراضي الطيِّبة (مركز إقامته) وعلى أراضي عدشيت القصير بكاملها، وعلى نصف الأراضي المُستملكة في عديسة، ما عدا الأراضي المشاعيّة، فكانت سجلّات الطّابو العثمانيّة تحمل في زوايا صفحاتها العليا، لناحية اليمين، الفقرة التالية:

«نصف هذه العقارات يملكها سعادة البك».

لكنّ هذه العمليّة لم تكن تتمُّ إلّا بعد جلب الفلّاحين إلى دار البك في الطيّبة، واستدراجهم بالتهديد والوعيد للإقرار بتملّك البك

لهذه الأقسام من أراضيهم. فلمّا وصل الدّور إلى بلدة حولا استُدعيَ وُجهاؤها لتقديم الإقرار المطلوب، لكنّ هؤلاء أبوا أن يُذعنوا لمشيئة البك المتسلّط رغم ما وُجّه إليهم من تهديد ووعيد.

وقد أطلق خليل بك يومها، بدافع الحنق والغيظ، كلمتَه المشهورة التي ذهبت في المنطقة كشتيمة بحقّ أهالي حولا وهي:

– كل الدباب رقصَت إلّا دبّ حولا...

لكنّها في الحقيقة شهادة على جرأة هذه البلدة وإبائها، ورفضها التنازل عن الحقوق... وقد مرّ زمن على حولا كانت تُسمّى فيه «حولا الحمراء» لشيوع العقيدة الماركسيّة فيها شيوعًا كاسحًا...

حسين الجوع...

في بلدة الطّيبة رجل من آل قشمر اسمه حسين، اشتهر في بلدته والجوار باسم «حسين الجوع». وسبب هذه التسمية البليغة أنّه قال ذات مرّة في أحد المجالس، على سبيل التشهّي، لكن بصيغة فكاهيّة:

– يا منى عيني على هالعويذي فراكة، والبركة فوقها زيت، والليطاني حدّا فوارغ...

والعويذي هذه هي آخر قمّة تنتهي بها جبال الجليل العليا شمالًا، وتواجه الطّيبة لناحية الشرق. وهي تُعدّ، من حيث ارتفاعها، الثانية بعد قمّة مارون الراس التي تزيد عنها بأمتار قليلة. أمّا البركة فالمقصود بها بركة الطيّبة، وكانت قبل ردمها أخيرًا، بركة واسعة يقارب قطرها أربعين مترًا، وعمقها خمسة أمتار، وتتّسع بما يزيد عن ثلاثين ألف برميل، وأمّا الليطاني فهو النهر المعروف، الذي يجري عند كتف الطيّبة الشمالي في وادٍ سحيق أسفل محلّة الفقعاني. والطريف في لغة حسين الجوع أنّه قرن كلّ نوع من مواد الطعام بما يشبهه في الشكل، أو الحجم، أو الطبيعة.

بقي أن نذكر أنّ الرجل، على ما بلغني، مسافر حاليًّا في إحدى دول الخليج، فعسى أن يعود من هناك يومًا وقد اكتسب اسم حسين الشبع أو حسين الشبعان!

أبو قَلّيح

قبل أن ينزح (إ.ع.) بعائلته إلى بيروت في مطلع الخمسينيات، كان يعمل في البلدة في كار الفعالة، ولذلك لم يجد في وسعه أن يكسب رزقه في مستقرّه الجديد إلّا كعامل يومي بالنُمرة في ميناء بيروت...

كان (أ.ع.) عظيم الألـواح، مفتول الساعدين، متين البنية، انجباريًّا، ولذلك حاز ثقة رؤسائه في الميناء فثبّت في عمله، مع الزمن، موظّفًا دائمًا.

وقد اتّخذ له مسكنًا صغيرًا في حيّ شعبيّ فقير في بعض أطراف «برج البراجنة» يُلائم مدخوله المتواضع. ورغم بُعد الشقّة بين هذا المسكن والميناء، كان (إ.ع.) يقطع المسافة سيرًا على قدميه في الذهاب والإياب، توفيرًا لمصروف النقل، لكنّه كان يعود يوميًّا إلى البيت وعلى كتفه حزمة أخشاب مختلفة الأطوال، كان يلتقطها أثناء رجوعه، من زوايا الميناء أو بعض الطريق... وأحيانًا كان يظفر ببعض المواسير، أو الدرابزينات القديمة، والحنفيّات، ونوافذ الأباجور عن عربة بائع خردوات وحدائد فيشتريها بأثمان زهيدة، ويجمع كلّ ذلك

في ركن من الدار، أو على سطحها، حتّى يعود إلى البلدة في المناسبات، فيشحن ما يكون قد تجمّع من هذه الأشياء إلى بيت قديم متهالك كان قد ورثه عن والده، حتّى اكتظّت جنبات البيت بها...

في أواسط الستّينيات، وكان قد مرّ على وجوده في بيروت قرابة خمس عشرة سنة، استطاع (إ.ع.) أن «يُحوِّش» بالجهد والحرمان ما يكفيه ليُقيم مكان البيت الموروث بيتًا جديدًا بالباطون مستفيدًا من عمليّة تدوير (Recyclage) لكلّ مجموعته الطريفة من القطع واللقايا... كان البيت محكومًا بأمرين: ضيق المساحة، وضعف الإمكانيّات، فجاء كشكولًا مضحكًا في عالم البناء، لكنّه هيّأ لـ(إ.ع.) أن يفتح عينه بين الناس في البلدة بأنّه عمّر بيتًا جديدًا.

في القرى يندر أن تجد شخصًا لم يلبسه لقبٌ يُعرف به أحيانًا. وكان لقب (إ.ع.) «أبو قَلّيح» (وقلّيح تعني في لغة العوام الكلّة البلّوريّة ذات الألوان المتداخلة التي يلعب بها الصغار بما يُشبه المقامرة في الفسحات الخارجيّة بين البيوت).

ذات يوم، وكان البيت قد نجز على صورةٍ ما، وقف (إ.ع.) على مسافةٍ منه يتأمّله بغبطة وإعجاب، وكأنّه القصر الحكوميّ في بيروت، ثمّ هتف لذاته، دون أن يفطن إلى أنّ ثمّة مَن يسمعه من المارّة:

– والله وطلع منّك، يا بو قلّيح...

ومن حسن حظّ الرجل أنّه تُوفّي بعد سنوات، قبل أن تمتلئ جنبات البلدة بعشرات الدور الفخمة والفيلّات المتوّجة بالقرميد

الأحمر، وإلّا لكان تملّكه من ذلك تنغيص شديد، وحسرة قاتلة... وربّما كان قال: يا حرام الشوم ما طلع منّك شي يا بو قَلّيح!

نوم الهنا

كان عبد الرضا عبّاس كبير عائلته الرماملة في زمنه، وكان معروفًا بدهائه، وروحه المرحة. ذات يوم، عند الفجر، وكان جالسًا على مصطبة أمام بيته الذي ما يزال قائمًا حتّى اليوم بجانب الطريق الرئيسيّة وسط العديسة، مرّ به رجل مُسِنّ اسمه حسن شومر، وهو يحمل قدرًا مليئة بالحليب... ألقى الرجل عليه تحيّة الصباح وهو يلهث ملدودًا فردّ عليه أبو أحمد التحيّة باشًّا وسأله:

– وَين كاين يا بو محمود قبل هالضوّ؟!

ردّ الرجل بشيء من التبرُّم:

– وين شايفني كاين يا بو أحمد... بالصيرة، عم بحلب هالمعزايتين.

قال أبو أحمد بمكر:

– الله يعطيك العافية. شو أحسن من هيك. المحروس محمود عم يتضحّى بنوم الهنا، وإنت قايم تهابق بمثل هالوقت...

ثمّ أردف: ليك اصحى تنسى كمان تسخِّن له الحليبات وتستنّاه حتّى يفيق...

تميّز أبو محمود حنقًا من تأثير ما سمع. والمعروف أنّه كان من طبيعة الرجل أن يستجيب سريعًا للاستثارة، فما كان منه إلّا أنّ قلب القدر رأسًا على عقب وهو يدمدم:

– إي هه... ما دام هيك خلّيه يشرب حليب... كيت وكيت لدين الأولاد!

قال ذلك ثمّ أكمل طريقه إلى البيت وهو يحمل القدر فارغة. وربّما لم يشعر بندامة قطّ على ما فعل!

وقد قرأت في بعض كتب التراث الطُّرفة التالية الشديدة الشبه بطرفتنا هذه:

اصطحب أحمقان في طريق فقال أحدهما لصاحبه تعال نتمنَّ لنقطع الطريق فقال الأوّل أنا أتمنّى قطيعَ غنم لأنتفع به وقال الآخر أنا أتمنّى ذئابًا أُرسلها على غنمك كي لا تترك منها شيئًا. فقال وَيحَك ليس هذا من حقّ الصحبة وحرمة العشرة فتصايحا ووقعت الخصومة بينهما وتماسكا بالأطواق ثمّ رضيا بأن يكون أوّل مَن يمرّ عليهما حكمًا بينهما فمرّ بهما شيخ بحمارين عليهما زقّان من عسل فحدّثاه بحديثهما فأنزل الزقّين وفتحهما حتّى سالا على الأرض وقال: صبّ الله دمي مثل هذين إن لم تكونا أحمقين!

حين يُصبح القثّاء دواءً...

كان (أ.ف.) من أدهى مجايليه في العديسة، وأوسعهم حيلة... لكنّه برغم ذلك كان أقرب إلى الفاقة منه إلى اليُسر... ذات سنة زرع في حقل يملكه بجانب الطريق الرئيسيّة ما يُسمّى في لغة العامّة «صحرة»، وهي زراعة صيفيّة تشتمل على الخضروات من بندورة، وقثّاء، وكوسى، وبطّيخ، وذرة صفراء، فكان بعض العابرين، من العديسة وغيرها، يشترون منه بعض ما يحلو لهم من تلك الأصناف... على سبيل الاشتهاء، كما يُقال!

مرّت إحدى النسوة ذات يوم، ومعها بعض صغارها، من أمام «الصحرة» فاستعطفها هؤلاء أن تشتري لهم قثّاءً. نزلَت المرأة على طلب الصغار فاشترت كيلوغرامين من القثّاء دون أن تذوق طعمه عند المشتري؛ فلما وصلت إلى البيت اكتشفت أنّ القثّاء كلُّه مرّ مرارة شديدة...

عـادَت المرأة إلى (أ.ف.) مغضبةً فرَمَت بالقثّاء أمامه طالبة استرجاع ثمنه... لكنّ (أ.ف.) ذا العينين الثعلبيّتين ابتسم في وجهها متظاهرًا بالعتب وهو يقول:

– يا حيفتي عليكِ يا بنت بو حسين، معذّبي حالك وراجعة من آخر البلد لهون منشان كم مقثاية... ولك يا عمّي المقثا المرّ دوا للصفيرا عند الزغار. اسألي حكيم...

دخلَت المرأة في جدل طويل ومرير مع (أ.ف.) لكن دون جدوى. وأخيرًا، لم تجد مخرجًا لها من الجدل سوى أن تنفر محنقةً وتعود إلى البيت خالية الوفاض طلبًا للسترة... ولكي لا توسَم بالدناءة!

تخمين غريب...

في شتاء إحدى سنوات الستّينيات، هطلَت الأمطار بغزارة شديدة طوال نهار وليلة حتّى ضجّ الناس، وخافوا أن تحصل في البلاد فيضانات مدمّرة.

وقد علّق أحدهم (س.ب.) على الحالة يومذاك بقوله: يا جماعة، الأرض ماء والسما ماء، شو انفختِت السما؟!

حرب الأخوين!

كان في بني حيّان، وهي مزرعة على مسافة خمسة كيلومترات تقريبًا غربيّ العديسة، أخوان: أحدهما، وهو الأكبر، يُسمّى «الزين»، وكان أعرج؛ والآخر، ولقبه «السطل»، شبه كفيف لرمدٍ مزمن في عينيه.

وقد نشب بين الأخوين خلاف طاحن حول قضيّة ميراث، لم يتمكّن أحد في المزرعة، ولا من رجال الدين الذين تدخّلوا، من فضّه، لشدّة ما كان في رأس الطرفين من عناد، حتّى قال أحدهم يائسًا: تُحلّ قضيّة فلسطين، ولا تُحلّ قضيّة الزين والسطل...

وقد انتهى بهما الأمر إلى التقاضي لدى المحاكم الرسميّة، بدائيّة واستئنافيّة. لكنّ الدعوى طالَت إلى ما يُقارب عشر سنوات كما يحصل عادة في كثير من الدعاوى الحقوقيّة. وقد اعتاد الناس في العديسة، وغيرها من قرى المحيط، أن يروا «الزين» و«السطل» وهما يعبران باكرًا في طريقهما إلى المحكمة، يمتطي أوّلهما حمارًا ويسير الآخر على قدميه لمسافة تقارب أربعة عشر كيلومترًا بين بني حيّان ومرجعيون...

وقد استنفد الأخوان الغريمان معظم مواردهما كمزارعين في تسديد تكاليف الدعوى دون أن يتركا للصُلح مكانًا...

أخيرًا تفتَّقَت موهبة «الزين»، ويبدو أنّه كان الأقلّ عنادًا، والأوسع حيلة، عن فكرة كانت، بحساب زمن مضى في خمسينيّات القرن الماضي، ذات جدوى بكلّ تأكيد. فقد جاء يومًا إلى دار الطيبة ليطرح الأمر بين يدي زعيم الجنوب يومذاك أحمد الأسعد لعلّه يجد لديه سبيلًا للحلّ... حين وقف في مجلس الأسعد، وكان غاصًّا بوجهاء المنطقة، خاطبه بصوت وَعرٍ مبحوح وهو مستند إلى عصاه قائلًا:

– يا أحمد بيك... يا أبو كامل... إنتَ عم بتحلّ كلّ مشاكل لبنان، زغيرا وكبيرا، وعم تُصلح كلّ هالدنيا وما قدرت تصلح هالأعور وهالألوق...؟!

ضحك أحمد الأسعد كثيرًا ووعد الزين ببذل أقصى مساعيه! لكنّه لم يستطع برغم ما بذله بين الرجلين من جهود أن يجد لهما حلًّا مرضيًا...

وقد استمرّ الخلاف بينهما قائمًا حتّى تُوفّيا كلاهما!

أبو ذيب

بلغ حسين بعلبكي (أبو ذيب) الخامسة والثمانين من العمر وظلّ يعمل يوميًّا في كرم له بمحلّة الثغرة شرقيّ العديسة.

كان يُقلّم الدوالي، وينقّب الحجارة والصخور، ويبني الجلول، ويزرع النصوب، وكان إذا استعصت عليه صخرة غارزة في الأرض، يكشف التُراب عن جوانبها بالمعول والمجرفة، ثمّ يتمدّد تجاهها بجسده، مستندًا إلى صخرة أخرى مجاورة، أو إلى مرفقيه، ويأخذ بدفعها برجليه حتّى يقتلعها ولو استغرق ذلك نصف نهار...

ذات يوم، عند العصر، كان أبو ذيب مارًّا في طريق عودته إلى البيت بساحة السوق، ممتطيًا حمارة له فوق حمل من الحطب، وخلف الحمارة كُرّةٌ صغيرةٌ تُبرطع مرحًا، وكان أمام أحد الدكاكين مجموعة من الأشخاص، بينهم عبد الكريم فقيه، يقطعون الوقت بتبادل الأحاديث، والممازحات...

أراد عبد الكريم أن يُعابث أبا ذيب فسأله بصوت عالٍ وهو يبتسم:

– مين محمّل معك هالحِمل يا بو ذيب؟

لم يُكلّف أبو ذيب نفسه عناء الالتفات، لكنّه ردّ باستخفاف:

– هالكُرّة...

ثمّ أكمل طريقه كأنّه لم يسمع شيئًا ولم يَقُل شيئًا!

لي بيت الوبَر ولك الحجر

كان عبد الله قاسم (تُوفّي سنة 1896) أحد وجوه آل الرمّال في زمانه، وله ابنة شابّة بارعة الجمال. وكان زعماء آل الأسعد في المنطقة إذا سمعوا بفتاة جميلة بين الفلّاحين يطلبونها من أهلها للزواج، طوعًا أو كرهًا، ثمّ لا يلبثون أن يلفظوها كما تُلفظ النواة بعد أن يكونوا قد قضوا منها وطرًا...

بلغ مسامع خليل بك كبير آل الأسعد في تلك الأيّام، خبر الفتاة المذكورة فاستدعى إليه والدها وهو ينوي أن يطلبها منه. فلمّا وقف الرجل بين يديه في دارته بالطيّبة أظهر له البك تودُّدًا وملاينة غير مألوفين منه تجاه الرعيّة. وخلال الحديث قال له:

– سمعتُ بأنّ لديكم فتاةً جميلة، يا أبا سلمان، يتحدّث الناس عن رجاحة عقلها، وحسن تربيتها...

نقد الرجل الحبّة، كما يُقال، فردّ من فوره:

– نعم يا سعادة البك... وقد رُزقت، بحمد الله، بابن الحلال من قبل كم يوم...

ارتاب خليل بك في أقوال عبد الله لكنّه كتم ارتيابه وقال:

– ما دامَت هي هكذا، كما يصفون، فهي تستاهل حياة الرفاه والنعيم، لا أن تكدح في بيت فلّاح معتّر...

كان لدى عبد الله قاسم أجير سنوي من آل الصبّاغ اسمه محمود، وكان هذا يعيش في بؤس وفاقة داخل غرفة أشبه بالجُحر. حين عاد الرجل من دار الطيّبة استدعى إليه الأجير محمود وعقد له على ابنته في اليوم ذاته لكي يُفسد على البك نيّته ويتخلّص من تسلُّطه...

ولـمّا علم خليل بك بـالأمـر استشاط غضبًا، وأرسـل يستدعيه مجدّدًا، فلمّا حضر بين يديه عنَّفه بشدّة، وتوعّده بالتهجير من البلدة والمنطقة برمّتها. لكنّ عبد الله ردّ بجرأة قائلًا:

– إنت يا بك تملك الأمر والنهي في رقاب الجميع، فإذا قضيتَ بتهجيري من بلدتي وديـاري فأمرك نافذ... أرض الله واسعة... لك بيت الحجر، ولي بيت الوَبَر!

المَهرُ المستحيل!

رغم أنّ (د...) بنت (م...) لم تكن من جميلات النساء، ولم يكن زوجها قبيحًا أو وسيمًا، رُزق الاثنان بفتاة اسمها (ف...) كانت تُعدّ في شبابها من جميلات الصبايا في عديسة إن لم تكن أجملهنّ، وكانت على درجة عالية من النظافة والترتيب وحسن الخُلق... وقد تقدّم لطلب يدها مجموعة من الشباب، الواحد تلو الآخر، لكنّ الوالدة (د...)، وكانت ذات طبيعة استعلائيّة، واجهتهم جميعًا بشرط تستحيل تلبيته، إذ كانت تقول لكلّ مَن يطلبها:

– ما بقبل مهرها إلّا العدس محشي، والثلج مقلي...

ولعلّ دافعها إلى فرض هذا الشرط المستحيل كان تعلّقها بفتاتها، لأنّه لم يكن لديها من الأبناء غيرها. وقد حُرمَت (ف) بهذا من الزواج طيلة العمر، وعاشَت بعد وفاة والديها وحيدة لا يدري أحد من أين تتوفّر لها موارد العيش...

عفارم... يا مهذّب!

في مطلع الخمسينيّات، وعلى أثر ضياع فلسطين، وتوقّف أعمال الناس في عديسة بسبب تهجير الغوارنة من منطقة الحولة، التي كانت بمثابة مدًى حيويّ لتجارة المكاريّة في العديسة، والعديد من القرى الحدوديّة، انصرف الكثيرون من أبناء البلدة، تأمينًا لرزق عيالهم، إلى أحياء الأراضي السليخ التي أُهملَت لزمن طويل.

وقد رأت بعض الجهات في البلدة هذا العمل اعتداءً على أراضٍ مشاعيّة تخصُّ المجموع، فأُقيمت عليهم دعاوى قضائيّة بالجملة.

وأثناء المحاكمة، ردَّد جميع المدّعى عليهم، بناءً على نصائح وكلائهم من المحامين، إفادة واحدة أمام القاضي مؤدّاها أنّهم يملكون هذه الأراضي، ويستثمرونها دون انقطاع، بالوراثة عن الأهل منذ عشرات السنين. لكنّ رجلًا واحدًا من بين هؤلاء هو (ع.م.) شذّ في إفادته عن الجميع. فحين سأله القاضي إن كان اعتدى على المشاع أجابه بوَرَع وسذاجة:

– والله يا سيّدنا القاضي إن كان الكذب حجّة الصدق بينجّي. نعم أنا كسرت أرضي كسار...

ولكنّ الصدق لم يُنجّ (ع.م.) للأسف، فقد برّأ القاضي الجميع ممّا نُسب إليهم من تهم، ما عداه وحده، وحكم عليه بالسجن لمدّة عشرة أيّام، وبغرامة ماليّة، مع إعادة الحال إلى ما كانت عليه... وحين كان يتوجّه إليه بعض ذويه وأقاربه باللوم على فعلته تلك، كان يُجيبهم بجملة واحدة تؤكّد إصراره برغم كلّ شيء على الصدق:

– بُكرة ما حدا بينزل بجورتي عنّي، الله أمر بالصدق!

صيت غنى...

في مطلع العشرينيات، رجع (م.ج.) من الأرجنتين بعد هجرة استمرَّت عشرة أعوام. وقد شاع في العديسة أنّه على قدر من الغنى كبير، لأنّه حين كان يُسأل في مجالسه من الأصحاب إن كان وُفّق في سفره كان يلثم يده ويضعها على جبهته ويقول:

– أكثر ما بستاهل... الحمد لله، ألف حمد وشكر لله!

وكان الناس يلاحظون أنّ «كَمَره»[1] حول خصره قد تضخَّم بصورة لافتة فراحوا يتحدّثون عن امتلائه بالليرات الذهبيّة «أمّ حصان»[2]... بدليل أنّه حين كان يخرج من بيته لقضاء أيّ حاجة داخل البلدة كان يحتضن «الكمر» بين يديه، وبين حين وآخر يتعمّد أن يُخشخش بما يحتويه.

---

1 الكمَر: هو زنّار من القماش يقارب طوله خمسة أمتار كان الرجال في الماضي يلفّونه حول خصورهم.

2 الليرة الذهبيّة «أمّ حصان» كناية عن الليرة الإنكليزيّة، وسُمِّيَت كذلك لأنّ أحد وجهَيها يحمل صورة حصان.

ورغم أنّ مظاهر الغنى لم تظهر عليه في ملبسه ومصروفه، وأنّه لم يغيّر شيئًا في وضعيّة البيت القديم المتهالك الذي ورثه عن والده وكان سقفه من الخشب والتراب، نسب الناس ذلك إلى حرصه على عدم إظهار الغنى كي لا يطمع به ذووه والمحتاجون إلى الاستدانة.

بعد سنوات مات الرجل فترقَّب الناس باهتمام شديد أن يُعلن بعد الدفن ما له وما عليه عند مدخل الجبّانة، تبرئةً لذمّته، على جاري العادة. وكم كانت دهشتهم عظيمة حين انتصب أحد أنسبائه، وهو رجلٌ مشهود له بمخافة الله والأمانة، وصاح بملء صوته قائلًا:

– يا جماعتنا... يا أهل بلدنا... إذا كان لحدا منكم دين على المرحوم، ولو بارة للفرد، لنسدّه عنه، فهذا على مسمعكم ومرآكم، اللي تركه المرحوم من نوع المال رح نفرّغه قدّامكم لتكونوا شهود أمام الله على واقع الحال ولحتّى نقطع دابر القال والقيل عن حرمته وأصهاره، كون أنجاله غايبين بالمهجر.

ثمّ فكّ كيسًا من الكتّان، كان يرفعه بين يديه، وأفرغه من محتوياته، فتساقطَت بين الأرجل حفنة من المتاليك النحاسيّة الحمراء من تلك التي كانت سائدة في العهد العثمانيّ... والتي لا تشتري كلّها على بعضها أوقية حلاوة!

اتركوني في كتابتي...

خلال فترة الحرب، في الأربعينيّات، تبعت قيام القوّات الحليفة بدحر قوّات فيشي في لبنان، على محور مرجعيون – حاصبيّا، أزمة اقتصاديّة شديدة في المنطقة. وقد عرف الإنكليز بدهائهم السياسيّ كيف يعالجون هذه الأزمة، فأوجدوا عملًا لأعداد كبيرة من العمّال في إقامة الاستحكامات، وشقّ الطرق، وحفر الخنادق ومصائد الدبّابات.

كان من جملة هؤلاء العمّال مجموعة من شبّان ومكاريّة العديسة وكفركلا. ونظرًا لأنّ السواد الأعظم من هذه المجموعة كان يجهل القراءة والكتابة فقد أسند إلى شخص فيها «يُعلّق الحرف»، كما يقال، أن يهتمّ بتسجيل أسماء العمّال بين حاضر وغائب يوميًّا، وعدد نقلات الحجارة التي كان يجري نقلها بالطنابر لرصف الطرق المستحدثة.

كان الرجل، قبل هذه الوظيفة، يعمل في صنع جلالات وبرادع الدواب، وكان معروفًا عنه أنّه حين يتكلّم يميل إلى «تفصيح» لغته، كما يفعل عادة بعض المدرّسين للإيحاء بتميّز المستوى، فبدلًا من أن يقول مثلًا: «مين هوّي»، حسب الدارج، يقول «مِنو»، وبدلًا من أن

يقول: «فلّ عنّي» يقول: «اتركني وشأني...». وقد قبض الرجل نفسه، في عمله الجديد، على أنه «فورمان»[1] foreman، بحسب التسمية الإنكليزيّة، وراح يتصرّف مع أقرانه على هذا الأساس؛ فكان إذا راجعه بعض العمّال، وهو معتزل في ناحية مشرفة من الورشة، في أمرٍ ما، يتصنَّع العبوس والتبرُّم، ويصرفهم عنه بشيء من التعالي قائلًا:

– اتركوني في كتابتي...

وقد استغلّ بعض الخبثاء من العمّال هذه الصفة فيه فكانوا يراجعونه بين حين وآخر، لسبب أو لغير سبب، لكي يستدرجوه إلى ترديد لازمته المعهودة تلك كلّما استهواهم التندّر والضحك...

وأحيانًا كان أحدهم يسأل جماعة، وهو يمرّ بهم، ممازحًا على سبيل التعريض:

– ليش الـ... معجوق؟! فيأتيه الجواب: ماسك وظيفة!

---

[1] فورمان: كلمة إنكليزيّة تعني الشخص المكلّف بالإشراف على ورشة عمل.

لكي لا تُخلِّف السمّاقة... من جديد!

في أواسط الستّينيّات نشب خلاف بين سليم برّو وأحد جيرانه في محلّة تسمّى «الدواوير» حول حدّ يفصل بين عقارين يخصّانهما هناك.

وقد ادّعى سليم برّو أنّ الجار قد نقل الحدّ إلى داخل أرضه مسافة مترين أو ثلاثة، وأنّ شجرة سمّاق كانت داخل أرضه أصبحت هكذا داخل أرض الجار ما استدعاه أن يُفوّض أمره إلى لجنة من «أوادم» البلدة لفضّ الخلاف.

أنكر الجار أمام «الأوادم» أن يكون الحدّ نُقل عن أساسه سنتمترًا واحدًا، وأكّد «بالله وبمحمّد بن عبد الله» أنّ شجرة السمّاق كانت داخل أرضه من الأساس، وأنّه منذ أطعمت كان يقطف ثمرها سنة بعد سنة.

وعندما احتدم الجدل، وكثرَت المداخلات من «الأوادم» قال سليم برّو ببروده المعتاد، موجّهًا كلامه إلى خصمه:

– طيّب يا سيدي، كرامة هالأوادم أنا متنازل عن حقّي، بسّ بدّي إنّه السنة القادمة، ما ترجع تخلّف هالسمّاقة عندي من أوّل وجديد...

تضاحك «الأوادم» وطمأنوا «أبا نسيم» بأنّهم لن يقبلوا أن تخلّف السمّاقة مرّة ثانية!

وبهذا فُضّ الخلاف.

كيف استيقظ النائم فوق!

في الفترة الزمنيّة الممتدّة بين أواسط الثلاثينيّات ومطلع الستّينيّات كان فيّاض ملحم رسلان من بلدة الطيّبة يملك في عديسة طاحونًا يعمل بالديزل، وكان يلزمه أن يُدار في كلّ مرّة بـ«مانيفيل» لأنّ الكهرباء لم تكن قد وصلَت إلى المنطقة بعد.

صباح يوم من أيّام الشتاء الشديدة البرودة، أراد فيّاض المذكور أن يُدير الماكينة بالمانيفيل كالعادة، لكنّ الماكينة لم تعمل. وقد كرّر المحاولة، هو وأحد أبنائه بالتناوب، سبع مرّات بدون فائدة.

كان فيّاض ملحم رجلًا بدينًا، جبروتيّ الطبع، وكان إذا أُثير توقّدت عيناه بغضب جارف. وقد أحنقه هذه المرّة إلى حدّ الهياج أن تذهب محاولاته سدًى.

نظر إلى ابنه، متجهّم الملامح، وقد ظهر عليه الإزهاق وقال:

– الظاهر يا ولد، أو إنّه رابطه إبليس، أو الله بعدو نايم... رح نجرّب لآخر مرّة، لنشوف!

كرّر المحاولة مرّة جديدة... مرّتين... ثلاث مرّات. لكنّ الأمر ظلّ على حاله، فما كان منه إلّا أن تناول عن أحد الجدران «جفتًا» معلّقًا كان يستعمله في رحلات صيده، وقد احتقَنَت ملامحه بحنق ظاهر، ثمّ وقف بباب الطاحون فسدّد فوهة الجفت نحو السماء مطلقًا نحو الأعلى طلقتين وهو يدمدم: «وآخرتها معك؟ لأيمتى يا اللي قاعد فوق؟!»

والطريف في الأمر أنّه حين أعاد المحاولة بعد هذا دارَت الآلات من المرّة الأولى!

لحظتئذٍ، ألقى «أبو محمّد» بجسده المتعب على كرسيّ ليرتاح وهو يتمتم ضاحكًا: «بيظهر إنّه فاق عالقواص، بدّو يكون مطوّل السهرة...».

كبّوت عبد النبيّ

قبل ضياع فلسطين عام 1948 كانت «الخالصة» (كريات شمونة بحسب التسمية اليهوديّة اليوم)، وهي أكبر قرى الحولة في شمال فلسطين، مركزًا تجاريًّا ناهضًا تتجمّع فيها البضائع المهرّبة أو المجلوبة بتراخيص جمركيّة من أنحاء شتّى في فلسطين وسوريا ولبنان. وكانت تُقام فيها نهار الثلاثاء من كلّ أسبوع سوق عامرة يجتمع إليها، إضافة إلى أهل تلك النواحي، أُناسٌ كثيرون من جبل عامل ووادي التيم والعرقوب والجولان فيتبادلون البيع والشراء ويعقدون الصفقات التجاريّة أو العقاريّة.

كان عبد النبي، وهو أحد فقراء ميس الجبل القريبة من الخالصة، زبونًا دائمًا لسوق الثلاثاء هذه. بضاعته خفيفة: عصا وكيس خيش؛ ويده خفيفة تصل دائمًا إلى ما تشتهيه عيناه ونفسه من أمتعة، وخضار، وفواكه، وحلويات، دون أن تمتدّ إلى جيبه لتُخرج ملّيمًا واحدًا.

ذات يوم، وكان الشتاء قد بدأ يُطلّ، نزل عبد النبي إلى سوق الخالصة، كجاري العادة. كان في نيّته أن يتدبّر لنفسه معطفًا يقيه

برد الشتاء، ويُدفئ ضلوعه. وقف أمام بسطة ثياب مستعملة يتأمّل ويتفحّص حتّى وقع على معطف أسود سميك لا تخرقه السكّين.

خلع بهدوء معطفًا باليًا كان يلفُّ به جسده الممتلئ ووضعه جانبًا، ثمّ تناول عن السيبة المعطف الذي وقع عليه اختياره فتفحّصه من ياقته حتّى أطرافه، وتأكّد من جودة قماشه، وحسن خياطته، ثمّ أدخله في كتفيه وجعل يتغربل بخفّة غير ملحوظة ليطمئنّ إلى تناسبه مع طوله وامتلاء جسده. وأخيرًا... تناول معطفة الحقيقيّ ففرده بين يديه باستخفاف وسأل البائع قائلًا: بقدّيش هالكبّوت يا حبّوب؟

قال البائع بآليّة بلهاء، وعيناه تزوغان بتيقُّظ وقلق بين الزبائن الكثر المزدحمين حول بسطته: بليرة فلسطيني...

تمتم عبد النبي بصوت هادئ مثقلٍ بالتهكُّم المدبَّر: «بليرة فلسطيني؟! والله مش قليلة!» وبحركة واثقة شدّ ياقة المعطف الذي ارتداه وهو يقول:

– إذا كان هالكبّوت المهري بليرة فإذن قدّيش كنت بتطلب بكبُّوت متل كبُّوتي هذا؟ بيمشي بربع ليرة لناخذه؟

قال البائع بحنق دون أن يُعيره اهتمامًا أو يلتفت إليه:

– حطّه بأرضه يا خيّي... مش للبيع...

كان عبد النبي ينتظر سماع مثل هذه الكلمة ليرمي من فوره بالمعطف أرضًا قبل أن يتنبّه البائع إلى غفلته، ويشمّع خيطه ويختفي بعيدًا في الزحام...

العدس بترابه!

لم يكن أبو رضا مزارعًا بمعنى الكلمة، لكنّه كان يملك ثلاثة عقارات متوسّطة المساحة يستغلّها في توفير مؤونة البيت من القمح والبرغل للعائلة، والشعير والبيقة والكرسنّة لدابّة الركوب والبقرة الحلوب الوحيدة التي كان يملكها.

في إحدى سنوات الخمسينيّات الأولى خطر لأبي رضا أن يزرع عدسًا في العقار الأصغر، الذي لم تكن مساحته تتجاوز خمسة دونمات، والذي كان يُسمّى «جلّ العدس!» لكن حظّ أبي رضا كان سيّئًا تلك السنة، فقد هبّت رياح خماسينيّة شديدة، والعدس في طور ازهراره، فتساقط معظم الزهر قبل انعقاده...

ورغم أنّ أبا رضا أحنقه الأمر، جمع حقل العدس أوان نضجه، وجاء به إلى البيدر، آملًا أن يستردّ الخمسة أمداد التي ألقاها بذارًا في الأرض... على الأقلّ؛ لكنّه بدأ يكتشف وهو يذرّي «العرّام»، أنّ كمّية

العدس جدّ ضئيلة، والحصى والتراب فيها أكثر من الحبّ. وحين أنهى اكتيالها لم تزد عن صاعين[1] ونصف...

وقف أبو رضا جانبًا يمسح عرق جبينه بكمّه، وقد ارتسمَت على شفتيه ابتسامةٌ بلهاء باهتة، ثمّ اتّجه إلى بعض أبنائه الكبار وقال:

- بالله يا شباب... هيّروا حالكم من بكرة للنزلة ع بيروت... رزقتنا بهالأرض ماتت، وإن ظلّينا هون رح نجوع...

ثمّ وضع يديه خلف ظهره وانصرف متجهّمًا، بخطوات بطيئة، متراخية، كأنّه راجع من تشييع أحد محبّيه، وفي الطريق راح يُردّد هامسًا بمرارة:

إذا أقبلَت باض الحمام على الوتدِ

وإن أدبرَت شخَّ الحمارُ على الأسدِ

[1] الصاع: مكيال قدره نصف مدّ.

حلاوتها بطيزها

كان أبو علي (ح.م.) عجوزًا شديد الإدمان على التدخين، يُشعل سيكارةً من سيكارة... وكان يُعدّ مساء كلّ يوم مؤونة مشروبه لليوم التالي من سكائر اللفّ لأنّه لم يكن يستسيغ طعم سكائر «البافرا» و«التاطلي» التي كانت تُطرح في السوق للطبقات الشعبيّة قبل السبعينيّات... وقد تلوّن شارباه الأبيضان، تحت المنخرين، بلون زعفراني فاتح من أثر الدخان الذي لم يكن يتوقّف عن إرسال غيومه إلّا ساعة إغفائه... وكان يظلّ متشبّثًا بالسيكارة يمتصّها حتّى تلدغ نارها أطراف أصابعه، وتتحوّل مؤخّرتها إلى أُمضوغة مهروسة مبلّلة باللُعاب...

ومن الطرائف التي كان الناس يتناقلونها عنه أنّه كان يردّ بصوته المتراخي على مَن يستغرب إفناءه للسيكارة بين شفتيه، ويحذّره من ضرر النيكوتين المتجمّع في عقبها.

– حلاوتها بطيزها يا ابني... حلاوتها بطيزها...

الكَرْم كريم...

على مدى عمره المديد، لم يعرف أبو حسين سوى صنفين من الأعمال: تجارة الفخّار، والكِرامة.

تعاطى العمل الأوّل لكسب رزق العيال، وكان مجاله بين راشيا الفخّار في منطقة العرقوب، حيث يُصنَّع الفخّار، وبعض قرى الساحل، خصوصًا قانا وشَمَع والعبّاسيّة، وكان قنوعًا بما يوفّره له من مدخولٍ يؤمّن له سترة الكفاية...

أمّا العمل الثاني، فكان ينصرف إليه في أوقات فراغه من العمل الأوّل، ولا سيّما في الأيّام الشاتية حين كان يُصبح السفر متعذّرًا عليه وعلى دابّته التي تنوء تحت حملها الثقيل. والمعروف أنّ الفخّار مادّة سريعة العطب، وانزلاق الدابّة المحمّلة به يورث خسارة كبيرة.

كان كرم أبو حسين واسعًا إلى حدّ أنّه كان يُغطّي معظم واجهة الجبل المشرف على البلدة لناحية الجنوب، وكانت زروعه مقتصرة على نوعين: التين والعنب. لكنّ أبو حسين كان شديد الرأفة بالطبيعة فكان كرمه يتراءى لناظره من بعيد أقرب إلى كونه حرجًا ملتفّ الشجر،

لا كرمًا، إذ كان على خلاف الكثير من الكرّامين في البلدة يتورّع عن أن يقطع شجرة سنديان أو ملّول أو لبنى أو بُطم حتّى وهو يعرف أنّها قد تمتصّ ماويّة العرائش بجوارها، وكان لا يمدّ يده بالفرّاعة إلى شجرة إلّا ليشذّبها تشذيبًا لطيفًا يزيدها جمالًا ونموًّا.

كان نتاج هذا الكرم يُقدّر سنويًّا بخمسة قناطير من العنب، وكان يمكن أن يدرّ عليه ربحًا ماليًّا طيّبًا لو أنّه فكّر باستثماره تجاريًّا؛ لكنّ أبو حسين لم يفكّر قطّ، في يوم من الأيّام، ببيع عنقود واحد منه، وكان يجعله وقفًا على مأكول العائلة، كفاكهة صيفيّة، وعلى سدّ حاجة من لا يملك كرمًا من الجيران والأقارب، وكان يُردّد دائمًا: الله طعمك كول وأطعِم...

وكان ينظر برضى إلى ما يناله الوحش والطير منه كرزق مقسوم لأنّ لكلّ مخلوق حظًّا من رزق الله بحسب اعتقاده، ويؤذيه أن يرى بعض الكرّامين ينصبون فِخاخًا للوحوش لردّها عن ثمار الدوالي أوان نضجها فيعظهم قائلًا: «هذا حرام... شو الوحش بيفلح وبيزرع تيعيش؟! الله قاسم رزقه من رزق الناس».

ولم يحدث مرّة أن احتجّ أو عنّف كما يفعل آخرون إن رأى، أو عرف، أنّ أحدهم دخل الكرم فأكل حتّى الشبع، وملأ جيوبه أيضًا، من تينه وعنبه...

مع الزمن تغيّرت الحال بأبي حسين، دَهَمته الشيخوخة، وهدّ الضعف قواه، فلم يعد قادرًا على خدمة الكرم، ومن كان يمكن أن

ينوب عنه في هذا الأمر من أبنائه الذكور نزل إلى بيروت من سنين، ودبّر أمر معيشته هناك. وسنة بعد سنة أكل الهشيم الدوالي، وغطّتها ظلال الشجر، فتقزّمَت لعدم التقليم، ويبس معظمها، حتّى صار العثور على بعض العراميش في بقايا الدوالي أمرًا مبهجًا لمَن يجدها من المتطفّلين، وصغار الصيّادين.

ذات يوم، وكان أبو حسين مستلقيًا على طرّاحة مُدَّت له في ظلّ توتة الدار، وقد تنفَّخ وجهه، وتهدَّلَت تقاسيمه ككرة عجين ضخمة شديدة التخمُّر، طلبَت نفسه العنب فنادى واحدًا من صغار أحفاده وطلب إليه أن يذهب إلى بيت جار له قريب فيشتري له أقّتين من العنب، وقد أوصاه قائلًا:

– أوعى يا ولد تقبل ما يأخذ حقّن...

نقده ليرتين بعملة ذلك الوقت باعتبار أنّ أجوَد كيلو عنب يومذاك لم يكن يُباع بأكثر من نصف ليرة. وبما أنّ الأقتين تعادلان كيلوغرامين ونصفًا تقريبًا فقد حسب أنّ المبلغ يفي بثمن المطلوب ويزيد.

بعد قليل عاد الولد بالعنب لكنّه لم يُرجع من المبلغ شيئًا، وحين سأله الجدّ عن البقيّة أخبره بأنّ الجار صاحب العنب لم يردّ له شيئًا بل قال له:

– سلّم على جدّك، وقل له إنّ الأقّة بليرة وربع، ولكن عمّي أبو جواد يقول لك مسامح بالباقي إذا ما بعثته...

استوى أبو حسين في جلسته، وقد أدهشه قول الجار، فصاح بحنق:

– ولو يا خلق الله... شو جاعَت وأكلت ولادها؟!

كانت زوجته العجوز جالسة إلى جانبه فلمّا سمعت ذلك صاحَت مدمدمة بغضب:

– نفسي روح زتّ هالعرموشتين بوجه هالواطي الما في بعينه ميّ. نسي بو كمّونة سلال العنب والتين يوم اللي كان مشتهي العنقود؟

قال أبو حسين وقد بدأ يلوذ بصمت مرير:

– إرسي بأرضك يا حجّة... ماشي الحال. في ناس ما بيعلّمها الكَرْم الكرَم.

ثمّ تنهّد وهزّ رأسه محدّقًا في الفراغ وهو يتمتم:

– حسبي الله ونعم الوكيل... حسبي الله ونعم الوكيل.

الغَضْبون!

كان لنا قريب على اسم أحد السلاطين العثمانيّين، وكان ميّالًا بطبعه إلى التطرّف، وشديد النقمة على الأوضاع السائدة. وكان يتحسّر، بل ويتحرّق، على أنّه لم يُعطَ سلطة تخوّله أن يُغيّر هذه الأوضاع بحسب ما يرتئيه من أساليب أهونها الكرباج والجلد... ولذلك كنّا نسمّيه: الغَضْبون.

ذات مرّة جاءني مغتاظًا لسبب رأيته زهيدًا، فقد ذهب إلى دائرة النفوس ليطلب إخراج قيد عائليّ فأجّله المأمور إلى اليوم التالي بحجّة ضغط العمل. كانت عيناه تقدحان شررًا، وملامحه منقبضة. وحين سألته عمّا به ألقى في وجهي بكلّ ما كان يختزنه في صدره من حنق قائلًا:

– ابن القحبة... ابن الستين كلب بدائرة النفوس... قال إخراج القيد اللي بدّو ليخلص دقيقتين... قال تعا بكرة... معليش، لو ظلّ عشر أيّام ما رح حُطّله بالطلب ألفين ليرة... تعوّدوا ع البرطيل ولاد الكلب...

سكت لحظة وهو يتلظّى ثمّ زمّ فمه بعصبيّة وأردف:

– لو كان الله بيحكّمني بها البلد شي عشر أيّام لكنت ظلّيت جزّ رقاب لحتّى ما يظلّ إلّا الأوادم بس... إن كان فيه أوادم!

قلت ضاحكًا ببرود:

– الحمد لله إنّو إيدك قصيرة وإلّا كنت خرَّبت البلاد، وما ظلّ فيها حدا!

ارتدّ إليّ بغيظ وقال:

– ومين قال إنّك إنت غير شكل... يمكن لو كنت محلّ ابن القحبة هذاك كنت بتعمل مثله، وبتتبرطل كمان...

لم أجد في وسعي أن أواجه الموقف بغير ضحكة ساخرة مفرقعة لم يتحمّلها فانتفض واقفًا ومضى وهو يُهمهم ويُدمدم...

حمارة النّوَر...

في أغلب السنوات التي سبقَت عقد الستّينيّات من القرن الماضي، ومع حلول كلّ صيف، اعتدنا أن نرى قوافل النَّوَر تعبر العديسة باتجاه الغرب. وكان يطيب لبعضها أن يحطّ رحاله عندنا فينصب مضاربه في محلّةٍ معتادة عند طرف البلدة لم يكن فيها سوى بضع زيتوناتٍ هرمات أهمل أصحابها استغلالها...

وفيما كان الرجال ينشغلون بتمهيد الأرض، ونسف «الخرابيش»[1]، كان صبيان النَّوَر ينتشرون في نواحي البلدة يستعطون خبزًا وإدامًا لعشائهم... وبعض عجائزهم، وفتياتهم المتبرّجات يَدُرنَ على البيوت لقراءة البخت عن طريق الكفّ أو الأصداف.

كانت العشيرة تُقيم في البلدة ما طابَت لها الإقامة، وعمومًا، لفترة تمتدّ بين الأسبوعين عادة، والشهرين أحيانًا، وكان بعض من يروقه من رجال البلدة أن يشرب قهوتهم يتحدّر نحو مضاربهم في عصارى النهار حيث يُستقبل بترحاب، ويُحاط بالمؤانسة. أمّا نحن،

---

[1] الخرابيش بلغة العامّة هي الخيام ومفردها خربوش.

يوم كنّا لمّا نزل صغارًا، فلم نكن نجرؤ على الاقتراب من مخيّمهم خوفًا من تجهّم كلابهم الضارية، فكنّا نحوم عن بعد حول محيطهم؛ فإذا رأى أحدنا والده أو أحد أقربائه الراشدين يقصدهم للزيارة يندسّ بجانبه متخوّفًا حتّى يدخل إلى المخيّم آمنًا. لكنّنا كنّا نشعر من جفاء نظراتهم نحونا بأنّه غير مرحّب بنا نحن الصغار. وحين كنّا نراهم يرحلون عن البلدة كنّا نلحق بهم، بشكل جوقة، إلى مسافات بعيدة ونحن نُردّد بأعلى أصواتنا مبتهجين:

نَــوَر نَــــوَر تــحــت الــتُّــوتْ   مِــعُــنْ صــبــي عــم بــيــمــوتْ
مــعــن بــنــت زغــيُّــورة   صــفــرا مــثــل الــدَّيــفــورة

وكنّا لا نتوقّف عن اللّحاق بهم، المرّة بعد المرّة، إلّا حين نراهم يُحرّضون كلابهم على اللحاق بنا... وكأنّهم لم يُقيموا في أرضنا، ويأكلوا من خبزنا!

في إحدى السنوات رحل النَّوَر عن البلدة مخلّفين وراءهم حمارة صغيرة، شديدة الهزال، حسبنا أنّهم نسوها، فلحقنا بهم نُكرّر الصراخ عاليًا: يا متاعين النَّور... نسيتوا حمارتكم!

لكنّهم لم يُظهروا اهتمامًا بصراخنا حتّى غابوا فعرفنا أنّهم تركوها عمدًا لأنّه لا حاجة لهم بها. كنّا مجموعة من خمسة أو ستّة أولاد. وقد رأينا في الحمارة المسيَّبة هذه لعبة غير منتظرة.

كانت الحمارة مسمَّرة بتخاذل في أرضها، ذابلة العينين والأُذنين. وحين رحنا نحرّكها لم تتحرّك إلّا قليلًا وبالجهد، وكأنّها تقول:

– اتركوني في حالي... واذهبوا إلى أمّهاتكم!

صعد أحدنا فوقها وهو يضحك مزهوًّا، فارتجَّت تحته بشيء من التراخي. وحين رأى الآخرون أنّها مستسلمة بوداعة ولم يبدُ عليها رفض أو نفور راحوا يعتلون ظهرها الواحد بعد الآخر فيما كانت قوائمها تنفرج وتلتوي أكثر فأكثر... فلمّا أصبح الجميع، عداي أنا، فوقها، وكنت ما أزال أنتظرِ أن أجد لي مكانًا بينهم، فوجئنا بالحمارة تتداعى وتهوي بالجميع إلى الأرض.

نهض أترابي من تحتها وفوقها يُقهقهون ويتصايحون، لكنّ الحمارة المسكينة ظلَّت مستلقية بعياء. وحين رحنا نحاول أن نستنهضها بشدّها من ذنبها وأذنيها أغمضَت عينيها وراحَت تشخر وتلهث لهاثًا متسارعًا كأنّها تلفظ أنفاسها الأخيرة. ولكي لا يشعر أيّ منّا بأنّه يتحمّل تبعة موتها فتلاحقه الكوابيس في فراشه، رحنا نتراكض نحو بيوتنا، ولا ندري إن كنّا ساعتئذٍ فرحين أو مذعورين...

أبو عثمان... مش شيء ثاني!

كان في إحدى قرى الحولة، قبل ضياعها بضياع فلسطين، رجل وجيه في عشيرته يُكنّى بأبي عثمان رغم أنّ ولده البكر كان اسمه أحمد. وقد عمل أبو عثمان مختارًا لقريته قرابة أربعين سنة عزيز الجانب، موقرًا، فلمّا شاخ وضعُفَت همَّتُه، رغب في أن يخلفه بمنصبه ولده أحمد، وكان هذا دميم الوجه، وشبه كفيف. واستطاع أبو عثمان بما له من احترام ونفوذ أن يجعل القرية توافقه على رغبته، فعيّن أحمد مختارًا...

ذات يوم مرّ أبو عثمان، متوكّئًا على عصاه، من أمام السقيفة التي اتّخذها ولده لتصريف الأعمال فوجده يُدخّن النارجيلة في الظلّ فبادره بالسلام قائلًا:

– السلام عليك يا أحمد...

ردّ أحمد بامتعاض وجفاء لشعوره بأنّ الوالد لم يخاطبه بما يليق بالمنصب من احترام، كأن يقول له مثلًا «يا جناب المختار»:

– مالك عنّي يابا...

استشاط الوالد حنقًا لما سمع فناداه مُدمدمًا قبل أن يُكمل سيره:

– يوه... يوه... يوه... إي والله مالي عنّك يا أعور. هالسّع[1] صرت اليوم نبي والناس تحلف بيك؟! بس بقول لك إيش قال المثل يا حمّودتي: ربّي كلبك يعقر جنبك... وأنا أبو عثمان مش شيء ثاني... سامع... يا ابن ميمونة؟!

عرفت العشيرة بما جرى فاجتمع وجهاؤها في اليوم التالي واتّخذوا قرارًا بعزل أحمد من منصبه جزاءً له على عقوقه وفظاظته بحق والده، فانزوى مرذولًا في كوخ له عند طرف القرية كأنّه منفيّ...

---

[1] هالسّع، بحسب لهجة البدو، تعني الآن. وهي مأخوذة من كلمتي هذه الساعة، ويقابلها في اللهجة اللبنانيّة «هلّق وإسّا»، وفي اللهجة المصريّة «دلوقت».

Si... Si...

في أوائل العشرينيات، سافر (ح.م.) إلى الأرجنتين، ولم يكن يعرف من لغات الدنيا سوى لغة أمّه وأبيه.

مرّت الأيّام الأولى على وصوله إلى بوينس آيرس وهو يتنقّل بين موائد أبناء البلدة الذين كانوا قد سبقوه إلى تلك البلاد، فلمّا «تبَيبَتَ لوحده» صار عليه أن يتدبّر أمر مأكله بنفسه.

رجع مرّة من العمل وهو يشعر بجوع شديد فلم يجد، بداعي العجلة، أفضل وأسرع من أكلة البيض المقليّ.

نزل إلى حانوت قريب ليطلب بيضًا، لكنّه لم يكن يعرف كيف يعبّر عن مطلوبه باللغة الإسبانيوليّة فراح يستعمل العربيّة.

وقف صاحب الحانوت يُصغي إليه بتلطّف لعلمه أنّه قادم جديد إلى البلد، لكنّه مع كلّ الجهد في مساعدته، وتلبية طلبه، لم يتمكّن من فهم مطلوبه...

كان (ح.م.) يُكوّر يده ويُردّد باستمرار: بيض... بيض... وكان البائع يهزّ رأسه مستفهمًا دون أن يلتقط معنى الحركة: حسنًا، التفّاح

مدوّر، البرتقال مدوّر، البطاطا مدوّرة، البيض مدوّر، البندورة مدوّرة. إذًا فما عساه يطلب هذا الرجل؟!

راح يضحك، بمرارة وأسف، ضحكة باهتة.

أخيرًا، وكان اليأس قد بدأ يُداخله، ألهم الله (ح.م.) إلى لغة لا يُخطئ فهمها السامع. كوّر يده ووضعها عند قفاه ثمّ صاح:

– كيكي... كيكي...أغرق البائع في الضحك وهو يتمتم:

– Si... Si...

ومعنى ذلك: نعم... نعم... أخيرًا فهمت عليك أيّها التركي. إذًا أنت تريد بيضًا...

قل لي: حا... يا بابا!

كان (م.ط.) وحيدًا لوالديه على سبع بنات، فكانا «يريانه ولا يصدّقان» كما يُقال. وقد أسبغا عليه من صنوف الدلال والتغنيج ما لم يعرفه أحد من أبناء جيله في البلدة. وعلى سبيل المثال، فقد كان والده، لشدّة تعلّقه به وابتهاجه، يتّخذ لنفسه هيئة حمار، فيُركبه على ظهره، ويدور به في أرجاء البيت، طالبًا إليه أن ينخسه كما تُنخسُ الدابة ويقول له:

– قل لي: حا يا بابا... قل لي حا...

وعلى هذا نشأ (م.ط.) ضعيف الشخصيّة، «دلّوعًا» متواكلًا، وعلى درجة من البساطة تُقرّبه من البلاهة...

في الخمسينيّات، كانت واسطة السفر الرئيسيّة بين عديسة وبيروت، بوسطة يملكها شقيقان من البلدة، ويمتدّ مجال عملها الدائم من بلدتي ميس الجبل وبليدا جنوبًا، حتّى بيروت.

ركب (م.ط.) مرّة البوسطة في طريقه إلى بيروت، لا ليعمل هناك، بل ليستجمّ، مع أنّه كان قد أصبح رجلًا، وربّ عائلة. وفي بعض

الطريق أحسّ بأنّه «مزحوم». ولأنّه اعتاد أن تُلبّى طلباته ساعة يشاء، فقد طلب من السائق أن يتوقّف من أجله في صيدا ليرى أين يمكنه أن يقضي حاجته.

في صيدا، قرب ساحة النجمة، أوقف السائق البوسطة فنزل منها (م.ط.)، لكنّه لم يكن يعرف مكانًا محدّدًا لقضاء حاجته، فاضطرّ لأن يستوقف أحد المارّة وخاطبه قائلًا:

– يا أخ... وحياتك وَين في هَون بيت خلا؟

كان الرجل صيداويًّا قحًّا، ولديه خبرة بالأماكن في المدينة فاستجاب لطلب (م.ط.) وراح يوضح له باهتمام كيف يذهب هكذا يمينًا، وهكذا شمالًا، حتّى يصل إلى مقصوده.

في هذه الأثناء مرّت بقربهما صبيّتان، على درجة من الجمال، فاستوقف (م.ط.) الرجل عن كلامه، وهمس له بابتهاج:

– شايف شو حلوين هالصبايا؟!

شعر الرجل بالحنق، فأمسك به من ذراعيه، ودفعه عنه قائلًا بلهجته الصيداويّة:

– ولك إي روح دبّر خريتك... روح!

ثمّ انصرف عنه، وهو يحدجه بنظرات شزراء ساخطة. وعاد (م.ط.) يستوقف هذا أو ذاك من المارّة ليسأله كما سأل الرجل من قبل... فيما راح الركّاب في البوسطة يستعجلونه متبرّمين...

الجلد الأصليّ... لعفّوش!

روى لي أحدهم أنّه كان في ضيعته، وهي بجوار العديسة، رجل شبيه بالنَّوَر، داكن الوجه، دهنيّ البشرة. وكان بينه وبين الماء جفوة دائمة فلم يكن يغسل وجهه سوى مرّة في الأسبوع أو الأسبوعين، ودائمًا بالماء الحاف، ولا يستحمّ إلّا ليلة عيد الفطر من كلّ عام، وذلك إذا وقع العيد في فصل دافئ وإلّا فلا...

وكان الناس من حوله يتحاشون الاقتراب منه لشدّة ما كان ينبعث من ثيابه وجسده من روائح لاذعة. وقد عرفوه بلقب «عفّوش» وغاب اسمه الحقيقيّ عن الأذهان والألسنة فلم يكن ثمّة ما يعرّف عنه سوى تذكرة الهويّة.

حتى زوجته، جافته أمدًا طويلًا، في بداية الزواج، لكنّها عادت فألفته مضطرّة بعد أن ألزمها الشرع بالطاعة، وغلبها الباه... وحين كانت تلحّ عليه في غسل جسمه من الجنابة كان يرتعد، كأنّه تعرّى في زمهرير قارس، ويقول مستنكفًا:

– ولا ممكن أبدًا... الفوتة ع القبر، ولا الوقفة بالمزحلة[1]!

وكان الناس يستغربون كيف أنّه يظلّ حيًّا ومعافى فيما يمرض الآخرون، ناسين أنّه اكتسب مناعة ضدّ القذارة لشدّة ما ألفها وألفته...

حين زاره عزرائيل ذات ليلة شاتية – كما قيل على سبيل التندُّر – نخسه من بعيد بمنخاس طويل ليقبض روحه. وفي الصباح وُجد «العفّوش» متجمّدًا في فراشه، ميتًا...

حين وُضع على النعش ليُغسل، حسب المألوف الدينيّ، قام اثنان من أبنائه بغسله، لأنّ الغسّال تأبّى أن يضع يده فيه. وفيما هما منهمكان في غسله اقتربَت منهما امرأته وهمست لهما:

– دخلكن يا تقبروني... ادعكوه للمرحوم مليح حتّى يبيّن جلده الأصليّ. من عشر أشهر ما دقر جسمه الميّ...

وعلى غير إرادة منها أغرقت في الضحك كالبلهاء، قبل أن يزجرها الأبناء كي تنكتم وتترك الغرفة...

ويبدو أنّه لا شيء يَخفى على الناس، فقد وقعَت كلماتها البليغة هذه في آذان البعض منهم، فأشاعوها في البلدة، حتى أصبحت الأمّ إذا لاقت تمنّعًا عن الاستحمام من أحد صغارها تُعنّفه، وهي تجرّه إلى الحمّام مرغمًا، بقولها:

– يعني مات «العفّوش» وطلعت أنت محله؟!

---

[1] كانت المزحلة في بيوت القرى القديمة عبارة عن فجوة منخفضة قليلًا عن أرض البيت، ذات شكل نصف دائريّ، تحاذي الباب الرئيسيّ، ويستخدمها سكّان المنزل للاستحمام.

أو تقول مثلًا:

– يا معفّن... يا بو ريحة... ورّتك العفّوش جلده؟!

... وبالغنى عن اسكتلاندا!

كنّا نسمع بالمدعوّ (ع...) أكثر بكثير ممّا نراه، فقد كان مقيمًا في بيروت منذ مطلع الأربعينيات، وكانت مشاويره إلى الضيعة لا تحصل إلّا لمامًا: مرّة واحدة في السنة، وربّما في السنتين...

كان يملك بيتًا قديمًا موروثًا عن جدّه، في زاوية منعزلة عند طرف الضيعة، تكتنفه العرائش والأشجار البرّية، وأجمات الصبّار. وكان حين يأتي إليه في بعض شهور الصيف نادرًا ما يخرج من محيطه إلى الضيعة فلا نرى منه سوى شبح يتحرّك من بعيد.

كان (ع...) شديد الإدمان على الشراب، وصاحب كيف، ولا يحسب للمصاريف حسابًا؛ وقد تعوّد أن يستقبل، يوميًّا، وطيلة إقامته في الضيعة، لأسبوعين أو ثلاثة، شلّة من الندمان منتقاة، ممّن تروقه مجالستهم، فيتحلّقون حول طاولة في فسحة أمام البيت، لساعات طوال، يأكلون، ويشربون، ويسمعون بعض أغاني الأربعينيّات من فونوغراف يملكه. وكثيرًا ما كان زعيقهم وصخبهم يرتفع عاليًا حين يتعتعهم السكر ويطربهم السماع...

كان (ع...) غامضًا وطريفًا في الوقت ذاته. فحين يضطرّه أمر ملزم جدًّا أن يخرج إلى وسط الضيعة، كان يخرج في زيّ أمير عربيّ «مودرن»: جاكيت وربطة عنق فاخرتين، على بنطلون «كافاردين» فروسيّ، وجزمة جلد حمراء، وفوق كلّ ذلك عباءة رقيقة مقصّبة، وكوفيّة وعقال شريفي... ولكي يزداد غموضًا، كثيرًا ما كان يضع على عينيه نظارتين سوداوين. والحق يقال إنّه كان شديد التهذيب واللطف، يلقي السلام على مَن يصادفه في الطريق حتّى لو كان ولدًا ابن عشر سنوات... وكانت لازمته الدائمة في التعبير: يا ابن أخي...

لم يعرف أحد من أيّ باب كان (ع...) يكسب رزقه ورزق عياله، وبتلك الوفرة التي تسمح له بأن «يجخّ ويرخّ» كما يقال. وقد لازمني، لسنوات طويلة، الفضول حول هذا الموضوع، حتّى جمعتني، ذات صيف، صحبة طويلة إلى واحد من أخلص ندمائه أفشى لي بسرّ مهنته...

حدّثني أنّه كان يصنع، بطريقة خاصّة، وجدّ بسيطة، نوعًا من الويسكي الذي يصعب على أفقَه المدمنين أن يجد فرقًا بينه وبين الويسكي الاسكتلانديّة...

وكيف؟!

قال: كان يمزج الشاي المحلّى بالسكّر، ضمن نسبة مدروسة، مع السبيرتو البيضاء، ويعبّئ ذلك في فوارغ الويسكي الأصليّة. وقد جمع إليه عصبة من «العواطليّة»، كان يعهد إليهم بترويج هذا المشروب بأسعار متهاودة، متذرّعين بأنّه مهرّب عن طريق البحر...

كان أكثر زبائن (ع...) من أبناء برج حمود والدورة الأرمن، الذين كانوا يعملون في صناعة الأحذية، وصبّ المعادن، والخياطة، والحرف البسيطة، أو يمتلكون مقاهي شعبيّة...

ظلّت الويسكي التي يصنّعها (ع...) رائجة لما يزيد على عشرين عامًا، حتّى تُوفّي، كاتمًا سرّها عن كلّ عصبته تقريبًا. وكان الكثير من الزبائن يبدون إعجابهم بسلاسة نكهتها، فكانوا يطلبون المزيد منها باستمرار...

تضاحك صاحبي، وهو يروي لي كيف أنّ البعض من الزبائن كانوا يقولون له: «تشوك غوزال... جيب منه كمان، بابا...».

تُوفّي (ع...) في ظروف غامضة، ودُفن في إحدى مقابر الضاحية. ويبدو أنّه شعر بالتوبة في أواخر أيّامه، فأوصى أن يُكتب على ناصية ضريحه البيتان التاليان، اللذان تتكرّر كتابتهما على الكثير من شواهد القبور:

يا زائري لا تنسني   من دعوة لي صالحة
أبسُطْ يديك إلى السما   واقرأ لروحي الفاتحة

كوكبة ما حُمِّد... وعُبِّد!

هذاا العام، عدتُ إلى بيتي في العديسة، أوّل الصيف، فوجدتُ الهشيم في الجنينة قد التفّ وطال حتّى أخذ بأطراف الشجر. وقد ارتأيت أنّ خير وسيلة لإزالته هي حلجه يدويًّا، فاستأجرت لذلك عاملًا سوريًّا أكّد لي أنّه خبير بمثل هذا العمل فاطمأننت إليه...

كان اسمه حامد، وهو من بعض نواحي دير الزور، قريبًا من الفرات. وقد أنستُ إليه لأمرين: إخلاصه في العمل، وصدق لهجته، فكنت أكرّمه، وأُلاطفه، وأتحاشى أن أُثقل عليه بوجودي كثيرًا قربه، وكأنّني أراقبه.

سألته مرّة، خلال استراحة الغداء، ونحن نحتسي الشاي معًا:

– كم لك من الإخوة الذكور يا حامد؟

أجاب: «عشرة، بوجه الشيطان!»

قلت متفاجئًا:

– ما شاء الله... وكلّ هذه الكوكبة من أمّ واحدة؟!

تضاحك حامد بمرح وقال:

– أمّ واحدة... قل ثلاث، أربع، خمس، يا معلّمي...!

قلت: «معنى هذا أنّ الوالد من الفحول... ما شاء الله. وكم لك من الأخوات الإناث؟»

قال: «سبع».

قلت بإعجاب:

– يا سلام... ثمانية عشر إنسانًا من صلب واحد... خلال عشرين، ثلاثين سنة، تصبحون وحدكم عشيرة!

أضاف حامد وقد تعمّقَت ضحكته:

– هذا الذي ظلّ فوق التراب...

قلت:

– هذا يعني أنّ غير الذي ذكرت هناك موتى...

قال بهدوء، وقد شاب لهجته بعض التأثّر:

– أربعة... بنت وثلاثة صبيان. ماتوا وهم صغار...

قلت بشيء من الفضول:

– هل تحفظ كلّ أسماء الإخوة والأخوات على كثرتهم؟!

أجاب بمكر مبطَّن:

– وأين هي المشكلة؟! لو كانوا مئة كنت أحفظهم. أليسوا إخواني وأخواتي؟!

قلت:

– حسنًا... هات لنرى... عدّ!

أخذ حامد من فوره يعدّ الأسماء، بحسب الأعمار، مبتدئًا بالبنين ثمّ بالبنات:

«محمّد – أحمد – محمود – «محسوبك» حامد – حميدان – محيمد – حمد الله – حميِّد – محاميد – حمّودي – حَمَد – حمدة – حميدة – محمودة – صبيحة – خاتون – حفصة – عالية».

قلت بجدّية:

– ولِمَ كلّ هذا الإصرار من الوالد، يا ترى، على حصر التسميات بجذر لغوي واحد تقريبًا... أمن عوَز الأسماء؟!

قال: «لأنّ الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: خيرُ الأسماء ما عُبِّد وحُمّد...».

قلت: «ولكنّه خرج عن نصّ الحديث في بعض أسماء البنات».

قال مبتسمًا: «لأنّه استوفى كلّ أسامي التحميد، والحبل على الجرّار...».

سألت حامد أخيرًا: «والوالد، يا حامد، ما اسمه بالخير؟»

قال: «حمدان».

قلت: «ما أغرب هذا. لم يُبق والدكم زيادة لمستزيد... وكم عمره؟».

قال بلهجة متشكّكة:

– هو يقول ثمانون، لكن في تذكرة الهويّة 86، والعلم عند الله، يمكن 90، أيّام زمان كان المختار يسجّل الواحد بحسب التقدير...

في صباح اليوم التالي جاء حامد، متجهّم الوجه، مضطربًا، وظلّ يتحدّث مع نفسه همسًا، ويختصر حديثه معي إذا كلّمته.

قلت مستوضحًا:

– يا حامد... أراك اليوم على غير ما عرفتك البارحة. هل من شيء يضايقك؟

ردّ حامد دون أن يزايله تجهّمه:

– ما في شي جوهريّ... شغلة بسيطة يا أستاذ...

قلت:

– خير إن شاء الله. وما هي...؟

قال:

– البارحة، عشيّة، اتّصلت بالعيال فوجدت الدنيا خربانة...

قلت ممازحًا:

– إيّاك أن تقول لي إنّ الوالد قد تزوّج من جديد...

حملق حامد في وجهي، وقد اعترته الدهشة وقال:

– كيف عرفت بالله عليك؟! هو لم يتزوّج بعد، ولكنّه يريد أن يتزوّج، وهل تدري بمن؟!

هتفَت بفضول: «بمن؟ لنقل أرملة في الأربعين مثلًا؟!».

ضحك حامد بحنق وهو يهمس كأنّه يُحدّث نفسه:

– أرملة وفي الأربعين؟! لا يا سيّدي... لا أرملة، ولا مطلّقة، صبيّة في الخامسة والعشرين أو أكثر قليلًا. من عشيرة تتنقّل بين ديرتنا والعراق...

قلت: «هذا غير معقول. هل أنت تمزح يا رجل؟!».

أجاب حامد مؤكّدًا:

– والله، والله، والله... جدّ. جدّ. صدّق بالله!

قلت: «وماذا تقول العائلة؟!».

ردّ بمرارة:

– ما أحد موافق... لكنّه كما أخبروني يُهدّد ببيع كلّ ما يملك: البيوت... الأراضـي... الطروش، والذهاب إلى العراق فلا يعرف أرضَه أحد...

قلت: «إذًا فلتقبلوا رغبته... يبدو أنّه يريد أن يزور القبر باكرًا...!».

قال: «المشكلة ليست هنا. المشكلة أنّه يريد أن يجعل مهر العروس فرسًا أصيلة، وخمسين نعجة، ومئة دونم أرض...».

قلت باستنكار:

– وأنتم الثمانية عشر مخلوقًا ماذا يبقى لكم لتعيشوا؟!

قال حامد:

– من هذي الجهة نحن، بحمد الله، نملك أراضي واسعة، وطروش زين، لكنّنا لا نريد أن نخسره، ولا نريد أن نربّي إخوة جددًا بدل أن

نربّي أولادنا. انظر إليّ مثلًا. إنّني أغيب عن بيتي ثلاثة أشهر كلّ مرّة لكي أقوم بهمّ العيلة...

أحببتُ أن أُغيّر مجرى الحديث قليلًا فسألت حامدًا:

– وأنت يا حامد كم ولدًا لديك؟

قال: «ستّة».

– وكم زوجة؟

ضحك وكأنّه أُحرج، وقال:

– ثنتين....

قلت: «إلى حين تصبح في عمر الوالد قد تكون تفوّقت عليه... لكن قل لي لماذا تزوّجت للمرّة الثانية؟ هل الأولى تشكو شيئًا؟».

قال بجزم:

– لا بالله...

قلت: «وماذا تقول لك... هذه المسكينة؟!».

هتف بشيء من الانكسار:

– تقول لي: يا ابن عمّي يا حامد. أني مقصّرة بحقك بشيء؟ حارمتك من شيء؟ أقول لها: لا بالله، إنتِ زين، لكن قسمة ونصيب يا مستورة.

قلت ممازحًا:

– لنعد إلى الوالد... وهذه المرّة إذا أنجب أبوك ذكورًا فلن يجد ما يُحمّد به!

قال ضاحكًا: «لن يجد مشكلة، فأسماء التعبيد لم يُفتح جارورها بعد...».

قلت، وقد فاجأني:

– صحيح... عبد الله، وكلّ ما يضاف إلى عبد من أسماء الله الحسنى... عبد الكريم، عبد الجبار، عبد الصمد، عبد الحق... إلخ.

نفض حامد يده في الهواء، وكأنّه يعبّر عن يأسه، وهو يقول:

– ترابه بين عينيه... بنت الـ25 يلزمها فحل من الرجال لا إنسان واقف عند حافة قبره... الله يسامحك يا بو محمد، الله يسامحك...

ولم أشأ أن أستطرد في هذه المحاورة لأنّ حامد قام فانكبّ على الهشيم يجزّه بعصبيّة، وكأنّه يصرف عن ذهنه التفكير في هذا الأمر، فتناولت صينيّة الشاي ودلَفتُ إلى الداخل لأُخبر ملخّص ما جرى من حوار لأحد أبنائي الذي كان يقول قبل يومين إنّه لن يُنجب سوى ولد واحد على الأكثر!!

... وشهد شاهد!

كانت خدّوج امرأة ضئيلة البنية، زطيّة الملامح، خزراء العينين، ليس لها معيلٌ أو أقرباء. وقد اعتادَت أن تتلقّى من أهل قريتها في مناسبات عدّة كجني المحصول، والولادات، والوفيات، بعض الهبات والأعطيات التي كانت تؤمّن لها حدًّا أدنى من ضروريّات معاشها... وكانت حين تشتهي طعامًا دسمًا، لا يتوفّر لها في بيتها، تزور بعض البيوت الميسورة وتجلس إلى الطعام مع أهلها كأنّها واحدة منهم. وكان الناس يتقبّلونها ببعض الإشفاق، فلا يظهرون لها ما يؤذي خاطرها أو يكسر ثقتها بهم. والبيت الذي كانت تجد فيه ضيقًا بها أو تهاونًا بحقّها كانت تُشيع حوله من الأقاويل، أينما حلّت، ما يجعل سمعته في التراب...

ذات يوم دخلت أحد البيوت، وكان بابه مشرّعًا على مصراعيه، لكنّها لم تجد فيه أحدًا. وكان من المعتاد أن تترك بعض ربّات البيوت الأبواب مفتوحة حين تنصرف إلى أعمال أو زيارات في الجوار القريب.

جالت خدّوج ببصرها الصارم في أرجاء البيت وصاحَت:

– يا بيت الشيخ... مين فيه هون؟

وحين لم تتلقَّ جوابًا لم تشأ أن تخرج خالية الوفاض. فقد كانت يدها خفيفة، وكان الناس يعرفون عنها ذلك... كان ثمّة منبّه، عند كتف الداخون، يُرسل تكّاته بصوت مسموع. اقتربَت «خدّوج» فتناولته ودسّته بخفّة بين ملموماتها في كيس الإحسان الذي كان معلّقًا في كتفها، ثمّ أسرعَت بالخروج...

قبل أن تضع رجلها خارج العتبة، فوجئت بصاحبة البيت عند الباب، فانتابها الذعر، لكنّها تظاهرَت بالهدوء...

رحَّبَت المرأة بها، بشيء من التوجّس، ودعتها إلى البقاء، لكنّ «خدّوج» تذرَّعَت بأنّها كانت في طريقها إلى دكّان الجارة حينما خطر لها أن تمرّ فتسلّم عليها...

لم يفت المرأة صاحبة البيت أن تكون خدّوج اختلَسَت شيئًا من أمتعة بيتها الصغيرة فالتفتت تتفقّد، أوّل ما تتفقّد، المنبّه، لأنّه كان موقوتًا على ميعاد صلاتها الوسطى... صلاة الظهر.

بَسمَلَت المرأة، وانفجرَت صارخة:

– يا خدّوج... المنبّه. وقّفي بأرضك...

رفعَت خدّوج ذراعيها كمَن يستسلم، وهي تهمس متظاهرة بالبراءة:

- إعـدم بصري يا حاجّـة إن كنت شفت منبّه. يا تعتيري ع هالحكي...

قالت الحاجّة بغضب:

- ما تنكري... وين خبّيتيه... قولي؟!

لكن خـدّوج ظلّت مصرّة على التملّص والإنكار... دون أن تجد فرصة للمغادرة...

فجأة... صمتَت المرأتان بدهشة، فقد اندلع رنين المنبّه صادحًا من مخبئه الحصين! أسقط في يد خدّوج فارتمَت إلى الأرض متهالكة، تنتحب بمرارة وانكسار، بينما ظلّت الحاجّة لبعض الوقت، تحدّق فيها كالبلهاء، ولا تعرف ماذا تفعل أو تقول...

بفرجيك... وبدبّرك[1]

كان في قريتنا عديسة رجل فاتر الهمّة، قصير الباع، إذا تحدّاه أحدهم، مثلًا، أو شتمه، أو تعرّض لأحد من ذويه بالضرب، أو اعتدى على شيء من ممتلكاته، لا يفعل شيئًا سوى أن يتوعّده قائلًا:

– طيّب... بفرجيك... وبدبّرك!

ذات يوم، وكان جالسًا مع مجموعة من أصحابه أمام أحد الدكاكين، أحبّ أحدهم أن يُثيره، ليرى كيف تكون ردّة فعله، فخاطبه بلهجة تحدٍّ قائلًا:

– دائمًا بتقول بفرجيك، وبدبّرك، وما شفناك فَرجيت حدًا شيء...

ردّ الرجل بعبوس:

– هذا باب مناقرة مقصودة... اسمع منّي، احتفظ بلسانك دافي، أو بتشوف منّي شي ما بيرضيك...

قال الغريم:

– إن كان بكفّك سباحة ما تقصّر، لنشوف شو بيطلع منّك...

---

[1] تأتي بمعنى «سأريك» وتتضمّن معنى الوعيد.

ردّ الرجل وقد ظهرت أمارات الغيظ واضحة على ملامحه:

– يعني عم تتحدّاني؟! طيّب، ما دام هيك بتبقى تشوف... بدبّرك!

والطريف في الأمر أنّ صاحبنا عاش عمرًا مديدًا قارب التسعين من السنوات؛ لكنّ أحدًا لم يرَ من توعّداته بأسًا أبعد من كلمتيه المألوفتين: بفرجيك... وبدبّرك!

سرّ ما بعد الصلاة...

روى لي أحد المعمّرين في البلدة، ويُكنّى بأبي محمود، أنّه اضطرّ ذات ليلة إلى المبيت في إحدى قرى البقاع الغربيّ لتأخّره في إنجاز عمل هناك ذي طبيعة تجاريّة...

وقد سُرّ الرجل لأنّه حين ارتفع أذان الفجر، وتردّدت أصداؤه في أرجاء القرية، قام جميع من في البيت، وهو بينهم، لأداء فريضة الصلاة، لكنّه لاحظ أنّهم، عند نهاية الصلاة، راحوا يتهيّأون للخروج، لا إلى فلاحة ولا إلى تجارة، لأنّهم لم يُعدّوا عدّة لفدادين أو دوابّ... وحين سأل مضيفه إلى أين هم ينوون الخروج أجابه بأنّهم «سارحون إلى باب الله...». ولمّا استوضحه أكثر عن معنى قوله صرّح له بدون أيّ تحفّظ أو تمويه بأنّهم ذاهبون إلى سرقة المواشي من زرائب بعض جيرانهم العرب!

هزّ الرجل رأسه بأسف، وهو يُكمل حديثه لي.

أبديتُ استغرابي لهذه المفارقة المستهجنة وقلتُ لمضيفي:

– يا رجل... السرقة في ديننا وشريعتنا حرام، فكيف يصحّ هذا الخلط بين طاعة الله بتأدية الصلاة، والخروج مباشرة من بعد ذلك إلى السرقة؟!

أتعلم بماذا أجابني؟!

قال بهدوء كلّيّ:

– يا أخا العرب. للصلاة وقت، وللسرقة وقت. هذه خطّة ورثناها عمّن سبقنا من آبائنا وجدودنا، واعتدنا أن نعيش عليها...

قلت:

– وهل هذه الخطّة حكر عليكم وحدكم في هذا البيت، أم في البلدة من هو مثلكم؟!

قال بالهدوء ذاته:

– لسنا وحدنا... تستطيع أن تقول إنّ البلدة بأكثريّة رجالها تسير على هذه الخطّة.

قلت لمحدّثي أبي محمود:

– الأمر غريب حقًّا، لكنّني أرى أنّ كثيرين اليوم هم على شاكلة أصحابك أولئك، وإن اختلفت الوسائل والتبريرات بين زمن وزمن، وناس وناس...

شركات الطفران... في نيويورك!

في مطلع الستّينيّات، وكانت منطقة الخليج قد انفتحت أمام الأيادي العاملة الأجنبيّة نتيجة الطفرة البتروليّة، يمّم العديد من شبّان العديسة وجوههم شطر الكويت، للعمل هناك، طمعًا في الحصول على مداخيل أوفر من تلك التي كانت تدرّها عليهم أعمالهم الوضيعة في بيروت. وكان من بين هؤلاء الشبّان واحد اسمه محمّد هو أحد أبناء (خ.ج.). ومعروف بين أصحابه بطبيعته الماكرة.

استدان الوالد، وكان دكنجيًا رقيق الحال، ومعيلًا في الوقت ذاته، مبلغًا يسيرًا من المال لتأمين نفقات السفر لولده محمّد. وحين ودّعه باكيًا همس في أذنه بصوت مخنوق: «لا تطوّل بالمراسلة يا ولدي... ولا تنسى شو ناطرك هون...».

وردّ محمّد بلهجة استعراضيّة: «لا تهكل همّ يا بو محمّد... في أقرب وقت لمّا بيتيسّر شغلي إن شاء الله... الله يقدّرني كون عند حسن ظنّك!».

مرّ على سفر محمّد شهر... شهران... ثلاثة، دون أن يتلقّى الوالد منه أيّ رسالة تُطمئنه، وتهدّئ من قلقه وهواجسه... وأخيرًا، بعد قرابة سبعة أشهر تسلّم الوالد في عديسة رسالة منه بالبريد يطمئنه فيها إلى صحّته، رغم تشكّيه من الحرّ الشديد، ويُخبره بأنّ «الله قد فتحها بوجهه نسبيًّا...» وأنّه «موفّق في عمله»، وفي الختام يسأله أن يرسل إليه عنوانه «لكي يُرسل إليه دراهم...!»."

لوى أبو محمّد رأسه حانقًا، وابتسم بسخرية... لأنّ نفاق ولده لم ينطلِ عليه. ولم يتأخّر كثيرًا في توجيه رسالة جوابيّة إليه يقول له فيها، بعد «ترجومة» فاترة: «تسألني يا محمّد أن أرسل لك عنواني لكي ترسل لي دراهم... نحنا ممنونين غيرتك وأفضالك يا ولدنا العزيز. ما تكلّف نفسك بشيء بتاتًا. سلامتك عنّا بتسوى كلّ أموال الدنيا. أمّا بخصوص العنوان فأنا حاليًّا كما تعرف، في «النايرك»[1] عم بتفقّد شركاتنا هونيك... والسلام!».

[1] النايرك هي «نيويورك» بحسب لفظ العامّة لها.

الفهرس

عبد الحميد بعلبكي — رسّام ونحّات وشاعر وكاتب لبناني (1940-2014). تخرّج من معهد الفنون الجميلة في بيروت عام 1971 وأتمّ تحصيله الأكاديمي العالي في باريس، ليتفرّغ بعدها للتدريس في الجامعة اللبنانية في بيروت (1974-2004). أقام معرضين فرديَّين (غاليري وان، 1983 – الصالة الزجاجية، 1998 – الأونيسكو، 2008) كما شارك في حوالى 60 معرضاً جماعياً في لبنان والخارج. ترأس جمعيّة الفنّانين اللبنانيّين للرسم والنحت (1992-1994).

أمّا على المستوى الأدبي، فقد أصدر ثلاثة دواوين شعريّة وكتابين نثريَّين، ونُشرت له مجموعة من الدراسات والمقالات الثقافيّة والفنيّة في عدّة صحف ومجلّات لبنانيّة.

حديث الشيخوخة — في أقاصي الجنوب اللبناني حكايات لا يعرفها إلّا قاطنوه، وطرائف لا يتداولها إلّا أبناؤه، ومواقف لا يتلقّفها سوى المتنبّهين أصحاب الروح المتّقدة والعيون الراصدة، من الشاهدين عليها أو المتقصّين عنها. وعبد الحميد بعلبكي، ابن جبل عامل الذي عشق تلك الأرض وعشق أهلها، هو أحد هؤلاء الشهود.

بعين الرسّام الدقيقة كحدّ السيف، الدافئة كألوان التراب، تأمّل ورصد قصص أهل قريته والجوار، وبلغته العربيّة الفذّة وروحه المرحة وأسلوبه اللمّاح، كتب.

بين دفّتي هذا الكتاب حكاياتٌ صغيرة أبطالها مجهولون، وسوالف تعود بنا إلى زمنٍ يسبق زمن الخط الأزرق بين عديسة وفلسطين، ونوادر واكبت الذهنيّة الفلّاحيّة وأيّام الإقطاع وإفرازات الحروب وطبقة الأثرياء الجدد وتمرّد الأبناء، وقبل كلّ شيء وبعده، الإنسان في جميع حالاته.

هذا الكتاب كنزٌ إنسانيٌّ، وهو ليس سوى نقطة في بحر ما خلّفه عبد الحميد من كتابات تنوّعت بين شعرٍ ونصوصٍ نثريّة وكتابات نقديّة.

ISBN 978-614-438-823-5
9 786144 388235

نوفل هي دمغة الناشر
هاشيت أنطوان